تطوير الخطاب الدينى

وكيف تكون خطيباً ناجحاً

بقلم

محمد محمود عبد الله

مكتبة الإيمان - المنصورة
أمام جامعة الأزهر
ت: ٠٥٠/٢٢٥٧٨٨٢

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمــة

الحمد لله باسط الأرض ورافع السماء: خلق الخلق وجعل الصفوة منهم العلماء: واختصهم بميراث الأغنياء وأودع نوره قلوب الأوفياء: سبحانه يؤتى الحكمة من يشاء وصلاة وسلام على سيد الأتقياء: من شرفه ربه بزيارة السماء: سيدنا محمد رسول الله إلى الإنسانية جمعاء القائل (العلماء هم ورثة الأنبياء) خير من أمروا بالدعوة إلى الله تعالى: بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالحسنى: فهذه الثلاث هى حدود الدعوة ومن يخرج عنها فليس بداعية إذ أن من مكونات الداعى وتقبل دعوته التحلى بالحكمة وإهداء المعلومة بالحسنى فلا قسوة ولا غلظة ولا جدال يؤدى إلى تنافر وتباغض وتباعد عن الداعى لذا بين الحق سبحانه منهج الداعى وطريقه إلى الدعوة بقوله عز ثناؤه: ﴿ **ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ (النحل: ١٢٥) ولا ريب فى أن العلماء هم الدعاة وهم الهداة وهم النبراس الذى يحتذى به والنور الذى يضىء إلى طريق الحق القويم . فهم حملة الرسالة نصحا وإرشاداً وهم حماة العقيدة وحراس الشريعة السمحاء الذين اختارهم الحق تعالى وأسند إليهم أمانة التبليغ عن رسوله الكريم ﷺ . للأمة الإسلامية وتثبيت القلوب عندما تزيغ الأبصار وإيضاح الطريق عندما تضل الأهواء . وبيان الحق من الباطل . والهدى من الضلال . والنور من الظلام . فيجتنب الزلل ويزداد الإيمان . عصمتهم فى ذلك كتاب الله عز وجل وسنة رسوله الكريم ﷺ القائل: «**تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبدا . كتاب الله وسنتى**» أخرجه الإمامان البخارى ومسلم .

وكتاب الله تعالى هو القرآن العظيم دستور الأمة وعصمة أمرها الحجة القاطعة والحكمة البالغة والقول الفصل . فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم وصدق الحق سبحانه وتعالى إذ يقول: ﴿ **وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً** ﴾ (الإسراء: ١٢) ولقد رفع الله تعالى قدر العلماء وخلد ذكرهم فى القرآن العظيم يوم أن كانت أرواحهم نسمات

فى عالم الغيب قبل تكوين الأجساد . يوم الشهادة الخالدة لله الواحد الأحد الفرد الصمد بالوحدانية فى قوله عز شأنه ﴿ **شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ** ﴾ آية ١٨ آل عمران . فثبت أن أول من شهد لله تعالى بالوحدانية هو الله نفسه ثم ملائكته ثم نسمات أرواح العلماء فى عالم الغيب دلالة على رفعة قدرهم وعظيم شأنهم وعلو مكانتهم عند ربهم عز وجل . كما بين التنزيل أن العلماء هم أشد الناس خشية لله سبحانه وتعالى فى قوله ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء** ﴾ آية ٢٨ فاطر . والعلماء هم الدعاة الهداة المنوط إليهم مهمة التبليغ عن رسول الله ﷺ عن رب العزة سبحانه عملا بأمره فى طيب قوله ﷺ: «**بلغوا عنى ولو آية**» كما بين التنزيل أنه لا قول أحسن وأحب إلى الله تعالى فى الدنيا من قول الداعى إليه سبحانه على بصيرة مقترن بالعمل الصالح فى قول الحق عز شأنه: ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ ومن الثابت أن رسول الله ﷺ قد دعى إلى كل من سمع مقالته فوعاها . أى فهم المقصود منها وإدراك ما ترشد إليه مدلولات ألفاظها بالنضارة وهى نور يكسو الوجه ويزيد فى حسنه ويكسبه الوقار والإجلال فقال ﷺ: «**نضر الله امرئ سمع مقالتى فوعاها فرب سامع أوعى من مبلغ**» والمراد هو تحرى الدقة والأمانة فى السماع وفى التبليغ فيهم المطلوب ويتحقق المقصود فتسعد الأمة دنيا وآخرة: وهذا الكتاب أسميته كيف تكون خطيبا ناجحا؟ فى تطوير الخطاب الدينى من السنة والقرآن ليسترشد به الدعاة الأبرار فى إرشاد الأمة ونصحها . وشرحة وبيان سنة وشريعة نبيها ﷺ . وأسأل الله تعالى أن ينفع به إنه قريب مجيب .

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ،

خادم القرآن

محمد محمود عبد الله

مدرس علوم القرآن بالأزهر

* * * * * * * * *

تمهيد للبحث
الخطابة

أولا : - الخطابة : هى قيام من لديهم القدرة على توصيل المعلومات للمخاطبين على اختلاف ثقافتهم ومستوياتهم العلمية والعقلية والفكرية بمعنى أن الخطيب يخاطب كل العقول على اختلاف تكوينها بدءا من الفرد الأمى حتى الأستاذ الجامعى بأسلوب سهل يسير يجمع بين البساطة والفصاحة . . .

ثانيا : - الخطبة وهى الموضوع وتشتمل على ركائز أربع وهى : -

١ - **خطبة :** وتعنى وحدة الموضوع أى عدم الشتات بالسامع فى موضوعات شتى لا يفهم منها شيئا .

٢ - **خطيب :** وهو المتحدث الذى يقوم بعرض الموضوع وشرحه وتفصيله بأسلوب سهل يجمع الفصاحة والبيان بما يمكن السامع من فهم المقصود وتثبيت المعلومة فى ذهنه مستعينا بآيات القرآن العظيم والأحاديث النبوية والقدسية من السنة المطهرة فى الاستدلال على ما يقول مما لا يدع مجالاً للمشككين فى صحة قوله .

٣ - **مخطوب :** وهى المادة العلمية التى يقدمها الخطيب بعد أن يستقيها من الكتاب والسنة مختارة ومنتقاة لتعالج مرضا وقضية من أمراض وقضايا واقع المجتمع الذى يعيش فيه الخطيب وما أكثرها : وأهم هموم وأمراض الأمة الإسلامية هو الأتى : -

أ - التطرف وهو اعتناق فكر فاسد دخيل على الإسلام يحتاج إلى تصحيح بفكر راشد سديد يبين منهج الإسلام الصحيح وصورته الحقيقية التى معينها السماحة والعدل والرحمة والمساواة .

ب - الانفجار السكانى وزيادته الرهيبة والتى تنشأ عن قصور فى وعى الأسرة إذ لا يعرفون معنى لتنظيم الأسرة ولا تربية سليمة فهناك أمهات تحمل بعد أربعين يوما من مولد طفلها الأول ضاربة بقول الحق عز شأنه : ﴿ **وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ**

كَامِلَيْنِ ﴾ (البقرة: ٢٢٣) . عرض الحائط متجاهلة أنه تنظيم إلهى للنسل مما يضعف الطفلين معا إذ تحتار الأم أن ترعى من الرضيع أم الحمل؟! مما يضعف الذرية ويسبب قصورا فى الذكاء والقدرات الجسدية والعقلية مما يضعف الأمة بضعف أبنائها ناهيك عن الأعباء الاجتماعية والاقتصادية وتدنى الأمور المعيشية وتفشى المرض والفقر والجهل وما يترتب على ذلك من مساوئ فى المجتمع مثل البطالة والبلطجة وانتشار الفساد والجريمة وعدم القدرة على توفير المساكن والطعام والرعاية الصحية والنفسية والتعليم وغيرها .

ج - **المخدرات والإدمان:** وهى قضية القضايا إذ تفتك بعقول الشباب وأموال الوطن وضياع الأجيال وضعف الدولة واستنزاف ثرواتها وطاقاتها إذ أن الإدمان مرض فتاك يفتك بالمدمنين والمخدرات هلاك العقول والأجساد وضياع الأموال والأولاد .

د - **الانحلال الخُلقى:** إذ به يتفشى الزنا والرذيلة فى المجتمع مما يقضى على الأصول وتحلل العصبات إذ يرث الولد غير ابيه وينسب إلى أب وهو ليس منه ويحمل اسمه ظلما ويختلط بل ويندمج ضمن أسرة ليس منها مما يقضى على قدسية الأنساب وحرمة الأعراض والمحارم ناهيك عما يسببه الزنا من نقل الأمراض الفتاكة والفيروسات التى عجز الطب عن دوائها مثل الإيدز وغيره فهذه الأمراض الأربعة التى ذكرتها فى رأيى هى أفظع أمراض المجتمع المسلم ويجب سرعة علاجها بالتوضيح والبيان والنصح والإرشاد وبيان سوء عاقبتها . . . وهناك أمراض أخرى كثيرة أقل .

٤ - مخاطب: وهم جمهور السامعين والمصلين .

* * * * * * * *

لمحة عن حال الطريق
بين
رفعة الأداء وضراعة الرجاء

الحمد لله الذى جعل ذكره عدة للسالكين يتوصلون بها إلى خيرى الدنيا والدين ، وجنة واقية للمؤمنين ، فحمدا لله بنعمته تتم الصالحات ، ونشهد أن لا إله إلا الله شهادة يثقل لنا بها ربنا فى ميزان الحسنات ، ونشهد أن سيدنا محمد عبده ورسوله جاء بعظيم الآيات ، صلى الله عليه وآله ما بقيت الأرض ودامت السموات وبعد

فإن الطريق إلى الله تعالى يحتاج إلى صبر ومجاهدة وجهاد أين نحن والطريق طويل تعب فيه آدم عليه السلام وناح لأجله نوح عليه السلام ورُمى فى النار الخليل إبراهيم عليه السلام ، وأضجع للذبح إسماعيل عليه السلام ، وبيع يوسف عليه السلام بثمن بخس ولبث فى السجن بضع سنين ، ونشر بالمنشار زكريا عليه السلام وذبح السيد الحصور يحيى عليه السلام ، وقاسى الضر أيوب عليه السلام وزاد على المقدار بكاء داود عليه السلام وسار مع الوحش عيسى عليه السلام ، وعالج الفقر وأنواع الأذى محمد ﷺ ، هذا حال الطريق مع الأنبياء لذا فإننى أضرع إلى خالق الأرض والسماء أن يجعل القرآن العظيم لى رفيقا أسترشد به هدى الطريق وأناجى خالقى سبحانه إلهى ما أعظمك : يا غفور غفرانك ، يا رحيم سبحانك ، والظن فيك سيدى أنك تغفر ذلتى ، إلهى لا تعذب لسانا يخبر عنك بقرآنك ، ولا عينا تنظر إلى علوم تدل عليك وعلى فضل إحسانك ، ولا يدا تكتب حديث رسولك الكريم صفوة خلقك وضياء أنوارك ، ولا قدما تمشى فى خدمة ذكرك طمعا فى غفرانك ، فبرحمتك لا تدخلنى النار فقد علم أهلها أننى من خدمة قرآنك وأنت أرحم الراحمين ......

خادم القرآن
محمد محمود عبد الله
مدرس علوم القرآن بالأزهر

****

أولاً : تعريف الدعوة

الدعوة : لغة الحث على قصد الشئ ؛ وفعله ؛ أو تركه ، ومنه قول الحق عز ذكره : ﴿ **وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ** ﴾ (١) .

ومنه أيضاً ما حكاه القرآن العظيم على لسان مؤمن آل فرعون : ﴿ **وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ * تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ** ﴾ (٢) .

وتأتى الدعوة بمعنى الدعاء كما فى قوله عز ثناؤه : ما حكاه القرآن العظيم على لسان نوح - عليه السلام - من حال دعوته وأنها لم تؤثر فى قومه ولم يستجيبوا لها : ﴿ **قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا** ﴾ (٣) .

وتأتى الدعوة أيضاً بمعنى الدعاية كما جاء فى كتاب الرسول الأعظم سيدنا محمد ﷺ إلى هرقل ملك الروم : "أدعوك بدعاية الإسلام" أى بدعوته .

الدعوة شرعاً : هى حث الناس على الخير ، والهدى ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وغرس المكارم والفضائل بما يحقق التعاون على البر والتقوى ، والتحلى بكريم الصفات ، وطيب الأقوال والأفعال ، ومكارم الأخلاق فإنها الحكمة من بعثة الرسول ﷺ فى قوله : «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**» .

وعلى الرغم من عمومية الرسالة المحمدية ﴿ **وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا** ﴾ ، نجد أنه ﷺ يبين هدفاً واحداً من بعثته هو تتمة مكارم الأخلاق ، فكأن الحكمة من بعثة الرسول الأعظم سيدنا محمد ﷺ هو تتمة مكارم الأخلاق ، ونلاحظ من فطانة النبى ﷺ أنه لم يتهم الآخرين بقصور فى الأخلاق وإنما يبين سبب بعثته فقط كما أسلفنا فى الحديث .

هذا هو حال الداعية تتمة مكارم الأخلاق ، ولذا استحق ثناء الرب سبحانه

(١) سورة يونس : آية ٢٥ .
(٢) سورة غافر : الآيتان ٤١ ، ٤٢ .
(٣) سورة نوح : الآيتان ٥ ، ٦ .

بقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ .

والدعاة من بعده : أعنى العلماء : هم ورثة الأنبياء ، وحملة راية الدعوة إلى الله عز وجل ، وهم حماة العقيدة وأعلام الإسلام .

ومنها أمر الحق سبحانه وتعالى المؤمنين بقوله : ﴿ يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تفْلحُونَ ﴾ [1] .

هذا بعض ما قررته الدعوة : فإذا لزم المؤمنون والدعاة هذا النسق فى عباداتهم وسلوكياتهم تحقق لهم رضوان الله الأكبر فى حياتهم وبعد مماتهم ، أى إذا كان هذا هو حال الدعاة والمدعوين ، فازوا بسعادة الدنيا والآخرة : ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ ﴾ [2] .

وبهذا التعريف للدعوة لغة وشرعاً يتضح لنا جلياً المقصود بكلمة دعوة عند إطلاقها ، فنجد أن المقصود : هو الدعوة إلى الله عز وجل .

قال صاحب القاموس : إن الرغبة إلى الله تعالى أو الدعوة إليه عز شأنه تعنى الدعوة إلى دينه وهو الإسلام : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عندَ اللَّه الإِسْلاَمُ ﴾ [3] .

﴿ وَمَـن يَبْـتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دينًا فَلَن يُقْبَلَ منْهُ ﴾ [4] ، والإسلام هو دعوة الأنبياء ووصيتهم إلى أبنائهم ﴿ وَوَصَّـى بهَا إِبْرَاهيمُ بَنيه وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّيـنَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلمُونَ ﴾ ، وأول المسلمين هو أبو الأنبياء الخليل إبراهيم- عليه السلام - فيما سجله القرآن العظيم من إقراره : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّه رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَـه وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلمِينَ ﴾ [5] .

* * * * * * * * *

---

(١) سورة الحج : آية ٧٧ .
(٢) سورة الأحزاب : آية ٣٩ .
(٣) سورة آل عمران : آية ١٩ .
(٤) سورة آل عمران : آية ٨٥ .
(٥) سورة الأنعام : آية ١٦٢ ، ١٦٣ .

ثانياً : حاجة البشر إلى الدعوة

لقد اقتضت حكمة الله تعالى أن لا يُعذب حتى يرسل الرسل إلى أقوامهم يدعونهم إلى توحيده سبحانه وتعالى ، ويرشدونهم إلى معرفة الحق ويهدونهم إلى طريقه المستقيم ، يبينون لهم ما أحل الله تعالى لهم وما حرم عليهم لأنه سبحانه دقة فى مقتضى العدل : ﴿ **وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً** ﴾ (١) .

كما اقتضت حكمة الله عز ثناؤه أن يكون الرسول من جنس البشر ، حتى لا يخرج عن حدود مقدور عقول البشر ، لأنه هو الأقرب للإقناع والأقوم للتفاهم ، والأرجى للقبول ، حين يكون الدعاة من البشر يدعون أقوامهم الذين نشأوا فيهم ، وتربوا معهم ، وتكلموا لغتهم مع الفوارق التى يؤيد الحق سبحانه بها رسله ، مثل المعجزات وخوارق العادات ، فإنه أدعى لقبول الدعوة لأن المألوف ألفة ، والغريب فرقة : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ** ﴾ (٢) .

وقد جرت العادة فى كل دعوة أن تواجه بالرفض والصدود فى جميع مراحلها وعلى اختلاف الأمم وأزمنتها وأماكنها ، ورسلها ، ويرجع سبب ذلك لاختلاف المنهج القادم عن السائد فحين تأتى إلى أمة ما تصطدم بفاسد العادات وسيىء الأعمال والمعاملات ، والداعية الرسول يأتيهم على حين غفلة منهم يدعوهم إلى التغيير والانتقال من المفاسد والمحارم إلى الفضائل والمكارم ، والانتقال من أفعال الجاهلية التى لا منهج لها ولا قيمة فيها للإنسانية ، فهم غالباً ما يعيشون بما يشبه قانون الغابة الذى هو البقاء للأقوى ، وتناول ما طاب ولذ من المنكرات وإشباع الرغبات من المحرمات ، وسرعان ما يفاجؤون بالداعية يدعو إلى التغيير الشامل ، وهنا يقع التصادم بين الحق والباطل ، يكون فيه الغلبة للحق بإذن الله عز شأنه : ﴿ **قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ**

---

(١) سورة الإسراء : آية ١٥ .

(٢)سورة الأنبياء : آية ٧ .

فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (١) .

ومع صبر الداعية وثباته يؤيده ربه سبحانه وتعالى بظهور خوارق العادات على يديه ، وعلى الرغم من قوة الحجة ووضوح الرؤيا نجد أقواماً مع قناعتهم الشديدة يصدق رسلهم ، إلا أنهم يصرون على عنادهم وكفرهم ، فيكون نصيبهم الهلاك الجماعى كما هو الحال ، فى قوم نوح وصالح وشعيب وموسى وعيسى - عليهم السلام - ﴿ رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾(٢) .

وكذلك الدعاة هم ورثة الأنبياء فى حمل لواء الدعوة إلى الله تعالى ، وإرشاد أقوامهم و تذكيرهم بعهد الله عز وجل لهم منذ أبيهم آدم - عليه السلام - وهو ميثاق التوحيد الأعظم الذى فطر الحق سبحانه الخلقة عليه : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى ﴾ (٣) .

فالدعاة قائمون على تذكير الأمة بعهد الله عز وجل ، وتجديد البيعة لرسول الله الخاتم محمد ﷺ فيصلحون كل فاسد ويُقومون كل معوج نصحاً وإرشاداً وإقناعاً ، لأن الدعوة إلى الله تعالى عظيمة ، لا ينهض بتبعاتها إلا أكفاؤها من الرجال المخلصين ، وتحدد ملامح هؤلاء الدعاة مع تمثل معنى النصيحة نفسها ، وكيف أنها تعبيراً عن مجموعة من القيم التى تتطلب دعاة فيهم من النصيحة معانيها وأبعادها .

مع الأخذ فى الاعتبار أن القاعدة تقول : المؤمنون نصحة ، والمنافقون غششة .

إذاً لا يصلح للنصيحة إلا المؤمن ، ولم تكن تصلح إلا له . .

ولذا جاء فى الحديث : **«الدين النصيحة»** .

ولما سألوا لمن النصيحة : قال ﷺ : **«لله ولرسوله ولأئمة المسلمين ، وعامتهم»** ،

(١) سورة يونس : آية ٥٨ .
(٢)سورة الرعد : آية
(٣)سورة الأعراف : آية ١٧٢ .

وجاء فى الأثر : «**المؤمن مرآة أخيه**» .

والسؤال هو : ما معنى النصيحة؟

١ - الجواب : هى إرادة الخير للغير .

وفى هذا يقول ابن الأثير : النصيحة كلمة يُعبر بها عن معنى وهو إرادة الخير للمنصوح .

٢ - هى الإرادة منبعثة من قيمة الإخلاص الذى لا قيمة لإرادة الخير إلا به ، ومن هنا قالوا : والناصح : الخالص من العسل .

٣ - فى النصيحة : معنى النقاء والصفاء والوضوح ، والناصح : هو الناصع المتألق .

٤ - والناصح : الخياط ، وفيه معنى الإحكام ، والسبك الذى يجمع الشتات ، ليصير الأمر وثيقاً مؤدياً حكمة وجودة .

٥ - وإذا أمعنا النظر بعناية فى كثرة مشتقات كلمة نصح ، لتبينا كيف كانت المرونة والسعة سمة بارزة من سمات الداعية الذى يتخطى بها حاجز الجمود ، ليكون مرناً خفيف الحركة ، صالحاً لمواجهة المواقف المختلفة ، ويعالجها بما يناسبها من منطلق حكيم وتصرف سليم .

٦ - فى النصيحة معنى الصدق والطهارة أيضاً ، ومنها رجل ناصح الجيب : أى نقى الصدر ، طاهر القلب ، وفى هذا يقول الشاعر :

أبلغ الحارث بن هند بأنى ناصح الجيب باذل للثواب

٧ - تقول اللغة : النصاح ، السلك يخاط به ، فإن هذا إشارة إلى الجانب الاجتماعى فى النصيحة ، وكيف يجمع الله تعالى بها ما تمزق من علاقات الناس .

٨ - وفى النصيحة : معنى الخصب والنماء والنضارة والأرض المفتوحة ، أى

المتصلة النبات بعضه ببعض كأن تلك الحوب التى بين أشخاص النبات خيطت حتى اتصل بعضها ببعض .

٩ - وفيها معنى الشبع والارتواء ، ونصحت الإبل الشرب تنصح نصوحا ، صدقته وأنصحتها ، أى : أنا أرويتها ومنه قول الشاعر :

هذا مقامى لك حتى تنصحى   ريا وتجتازى بلاط الأبطح

ومن عظيم تدبير الخالق سبحانه وتعالى أن تحتوى كلمة نصيحة على هذه المعانى الجليلة ، والمشاعر النبيلة ، حتى يكون الداعية على بينة من أمره ، فلا يسعى إلى الهيجاء بغير أسلحتها من الإخلاص والصدق والحكمة والوضوح والمرونة والحيوية والخصوبة .

وحتى تكون الأمة على مستوى مسئوليتها وهى تدعوا إلى الله تعالى ، وكما قالوا : وإذا كان الإسلام نظاماً عاماً وشاملاً ينفذ بقوانينه إلى شتى مرافق الحياة فإن العاملين تحت رايته يتخصصون فى اتجاهاته ليجمعهم فى النهاية طريقه المستقيم ، طريق الذين أنعم الله عليهم من عشاق الفضيلة ورواد الحقيقة ، وطالبى الإصلاح وهو طريق أهداه سبحانه وتعالى من ارتضاه .

ويتجدد الأمل فى حفز الهمم ، وتشتد الحاجة إلى مزيد من العناية بالدعوة وإعداد رجالها بأحدث ما فى العصر من ذخيرة العلوم والمعارف لأن السلاح بضاربه ، ويتحقق التفوق بجودة السلاح ، والدعوة ، ورجالها جنود مجاهدون ، والجهاد عُدة وإعداد يحققان غاية الأمة إزدهاراً وإسعاداً .

* * * * * * * * *

ثالثاً معنى الدعوة إلى الله تعالى

هى : فيض السماء ، ودرب الأنبياء ، ونهج الأصفياء ، سمتها تنبيه الغافلين ، وتذكير الناسين ، وتعليم الجاهلين ، وواجب الداعى أن يتحلى بالحكمة ونور البصيرة والبصر ، ورجاحة العقل ورقائق القلب مع رهافة الحس ، وسرعة الإدراك ، زاده مكارم الأخلاق ، كساؤه الرحمة والحكمة ، منطقه عذب المذاق ، سمته سمة الأوفياء ، تحت قاعدة «**المؤمن كيس فطن**» .

وأن يتبرأ من : الغلظة والقسوة وضيق الصدر وسرعة الغضب ، وفحش القول ، ودفع السيئة بالأسوأ منها ، وأن يلزم منهم الفضلاء بعيداً عن الهبوط إلى منهج دناءات الأفعال الرديئة التى معينها الجبن والخسة ، وانحطاط الأخلاق ، فجميعها حماقة الجهلاء وسمة الأغبياء ، ثم يقومون بأعمال منافية له ، والإسلام منها براء ، فالإسلام لا يعرف القتل والغدر ، ولا العنف ولا التدمير ، ولا التخريب ولا الخيانة ، لأن هذه الأفعال جميعها تتنافى مع جوهر الإسلام الذى هو الرحمة والحكمة ، والسماحة والعدل ، والمساواة والأمن .

ولا يغيب عنا طرفة عين ما يدبره ويرتبه أعداء الإسلام من مؤامرات خبيثة تحاك فى الخفاء ، هدفها الفتك بالإسلام ، والقضاء على المسلمين فى شتى بقاع الأرض ، وتفريق شملهم وإضعاف قوتهم ، وتشتيت كلمتهم بأساليب المكر والدهاء ، وبضرب الإسلام فى صميم الإسلام ، فإن من يرتدى ثياباً إسلامياً أو يستتر فى لحية حال تنفيذه لجريمة نكراء بأرض الإسلام ، أو خارج أرض الإسلام ، لا يعنى أن هذا المستتر الدسيس مسلماً ولو ارتدى زى الإسلام أو تمسح فى هويته ، ولا عجب فإن حفدة عبدالله بن سلول ليسوا منكم ببعيد . . .

فواجب كل مسلم أن ينتبه من غفلته وأن يستيقظ من نومه ، وأن يراجع الحسابات حتى لا نقدم باختلافنا فى الرأى ، وشتات الفكر ، إسلامنا للأعداء لقمة سهلة المذاق ، دون أدنى تعب منهم أو جهد ، فيتحقق لهم باختلاف الأمة وتناحر أبنائها ما

لم يكن فى حسبان الأعداء . . .

وقد حذر الحق تعالى أبناء الأمة الإسلامية من كارثة الوصول إلى هذه المرحلة بقوله عز شأنه : ﴿ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ [1] ، كما أمرنا باثنتين بهما تتحقق سعادة أبنائها دنيا وآخرة فقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى ﴾[2] .

ولعلنا نسعد حينما نعلم أن كلمة بر كلمة جامعة لشتى صنوف الخير ، وشتى صنوف المكارم فى الأقوال والأفعال ، والتقوى جزئية من البر ، أى لا يكون تقياً إلا من كان باراً .

وبالبر تتضافر الجهود وتتحد الصفوف ، فيعم الرخاء والنماء فتزدهر الأمة بسواعد الأبرار .

وبالتقوى المؤمنون أقوى ، وبها يتحقق الأمن والوئام على ربوع الأنام ، لأن التقى هو الذى يجعل بينه وبين عذاب الله تعالى وقاية ، ولا تتحقق الوقاية إلا باجتناب ما نهى الله عنه وأداء ما أمر به .

وحين أمر الحق سبحانه الأمة بالتعاون على البر والتقوى نهاهم عن الإثم والعدوان بقوله عز شأنه : ﴿ وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ [3] ، والإثم : هو كل ذنب كبير . والعدوان : هو انتهاك الحرمات والقتل والبطش والبغى والفساد بشتى صنوفه ، وجميعها أفعال تتنافى مع البر والتقوى لأن البر والتقوى لا يصدران إلا من قلب شرح الله صدره للإسلام ، فنالته نفحة النور الربانية : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ [4] .

والإثم والعدوان لا يصدران إلا من قلب قاس حُرم صاحبه شرح صدره بنور

---

(١) سورة الأنفال : آية ٤٦ . .
(٢) سورة المائدة : آية ٢ .
(٣) سورة المائدة : آية ٢ .
(٤) سورة الزمر : أية ٢٢ .

الإسلام ، فاستولت عليه قسوة ظلمة الكفر والغفلة ، فتوعده الحق تعالى بالويل ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ (١) ، فلا يمكن لقلب شرحه الحق تعالى بنور الإسلام أن يقدم الإسلام لأصحاب الديانات الأخرى فى ثياب غير ثيابه الحقيقية التى معينها الرحمة والمحبة والتسامح والإخاء من خلال أفعال وأقوال وتصرفات المسلمين يعشق ، الآخرون دين الرحمة ، دين الله الحق فيقدمون عليه بقناعة مما رأوا وعلموا : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ﴾ (٢) ، للمسلمين ولغيرهم من أصحاب العقائد الأخرى لقوله عز وجل : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾ (٣) .

وعلى مر الدهور والأزمان وعلى اختلاف الرسل والرسالات والأمم لم نجد نبياً فجر قنبلة أو عبوة ناسفة فيمن عصوه أو تمردوا على دعوته ، ومن لم يتحل بأدب الداعية الذى هو أدب النبوة نال الجزاء من خالق الأرض والسماء ، بطريق مباشر كما هو الحال مع يونس - عليه السلام - حينما دعا قومه إلى توحيد الله عز وجل تمردوا على دعوته فضاق بهم ذرعاً بعجالة مجردة من الصبر الذى هو حال الأنبياء ، وذهب مغاضباً فكان جزاؤه أن التقمه الحوت ، وهو مليم ، فيما حكاه القرآن العظيم عن حاله أثناء تبليغه دعوة ربه قومه ، قول الحق عز ثناؤه : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٤) .

فى هذه الصرخة اعتذار النبى يونس - عليه السلام - أنه أساء استعمال الدعوة باستنفاذ الصبر الذى هو سمة النبوة فى دعوة أقوامهم معترفا أن العجلة وعدم التريس فى الدعوة ظلم ، ظلم به نفسه وقومه فكان تسبيحه ربه فى بطن الحوت هو دعمة

---

(١) سورة الزمر : آية ٢٢ .

(٢) سورة آل عمران : آية ١٩ .

(٣) سورة التوبة : آية ٦ .

(٤) سورة الأنبياء : آية ٨٧ .

النجاة وسبيل المخرج من الكرب ، فسجد لله تعالى فى بطن الحوت وصرخ مستغيثاً نادماً بقوله : (إلهى وسيدى وخالقى : سجدت لك فى مكان لم يسجد لك فيه أحد قبلى من العالمين . لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين) . .

فتعلقت هذه الكلمات بعرش الرحمن تشفع ليونس - عليه السلام - عند الريان ، فوهبه الحق تعالى النجاة والحياة : ﴿ **فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ (١) .

وقد أثبت التنزيل أن تسبيح يونس - عليه السلام - ربه عز وجل فى بطن الحوت كان سر نجاته من الهلاك فى قوله تعالى : ﴿ **فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ** ﴾ (٢) .

فحينما استغاث ربه مسبحاً نادماً على فعله وهبه الحق عز شأنه النجاة بفضله وكرمه لأن القاعدة العامة : أنه لا يهلك مع التسبيح أحد ، فيما أخبر الرسول الأعظم محمد ﷺ : «**عليكم بالتسبيح فإنه لا يهلك مع التسبيح أحد**» ، وقد أمر الحق تعالى حبيبه محمد ﷺ أن يتحلى بالصبر فى تبليغ دعوته ولا يتعجل مثل يونس - عليه السلام - بقوله عز شأنه : ﴿ **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ** ﴾ (٣) .

وأمره أيضاً بصبر أولى العزم من الرسل قبله بقوله سبحانه : ﴿ **فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ** ﴾ (٤) ، دلالة على أن الصبر هو الدعامة الأولى فى منهج دعوة الأنبياء والسمة المميزة فى دعوتهم أقوامهم إلى توحيد خالق الأرض والسماء ، الله لا إله إلا هو العزيز الوهاب .

---

(١) سورة الأنبياء : آية ٨٨ .
(٢) سورة الصافات : الآيتان ١٤٣ ، ١٤٤ .
(٣) سورة القلم : آية : ٤٨ .
(٤) سورة الأحقاف : آية ٣٥ .

ولا يغيب عنا أن منهجية الأنبياء عامة فى تبليغ منهج الله عز وجل ودعواتهم أقوامهم سمتها الرحمة ، ينبوعها الحكمة ، كما هو الحال فى خليل الرحمن أبى الأنبياء إبراهيم - عليه السلام - منهجه فى الدعوة إلى الله تعالى : ﴿ **فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ (١) .

وكذلك الكليم موسى - عليه السلام - حينما كلفه الحق تعالى هو وأخيه هارون أن يبلغا دعوته إلى قومهما بقوله عز ثناؤه : ﴿ **اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى** ﴾ (٢) ، نلاحظ فى هذا البيان الشافى سمو الرفعة ، وعظمة الحكمة الإلهية فى مدرسة أدب النبوة ، وتعليم الدعاة الربانيين ، أدب ما بعده أدب فى قوله عز شأنه : ﴿ **فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى** ﴾ ، فكأن الداعى من سماته الأساسية أن يكون لين القول وهو شرط فى قبول الدعوة .

الشرط الثانى : فى الداعى أنه مذكر ليس جلاداً ، ولا مدمراً ، فى قوله سبحانه : ﴿ **لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى** ﴾ فبالتذكير بعظمة الخالق جل وعلا ، بالاستدلال بمخلوقاته وموجوداته وهى أكبر من أن تحصى ، والتذكير بالموت وهو حقيقة واقعة رأى العين ، والتذكير بالبعث والحساب والجزاء ، والثواب بالجنة ، والعقاب بالنار ، فمن تذكر بهذا تحدث له الرهبة والخوف من الجليل عز وجل ، وهو قمة الأدب فى نهج النبوة ، فالداعى واجبه أن يذكر ، ونور الهداية يقذفه الحق تعالى قلب من شاء متى شاء تحت قاعدة : ﴿ **أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ** ﴾ (٣) .

أى من سمع تذكير الداعى فخشى ووعى ناله شرح الصدر وقذف الحق تعالى فيه نور الهداية .

---

(١) سورة إبراهيم : آية ٣٦ .
(٢) سورة طه : الآيتان ٤٣ ، ٤٤ .
(٣) سورة الزمر : آية ٢٢ .

ومن سمع التذكير من الداعى فقسى قلبه وتمرد على الدعوة حرم نور الهداية ، وكان حقا على الله تعالى أن يعذبه بنار الويل ، والويل هو واد فى جهنم ، جهنم نفسها ، تستغيث منه إلى الله تعالى كل يوم مائة مرة أن يخفف عنها من حره والعياذ بالله العظيم .

وكذلك الحال فى دعوة عيسى - عليه السلام - حين دعا قومه ولم يستجب له ، ما سجله التنزيل عن حال دعوته قول الحق عز شأنه : ﴿ **إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ [1] .

أما نوح عليه السلام فقد يأس من قومه يأساً ما بعده يأس ، بلغ مرحلة وصفها القرآن العظيم بالغلب فيما سجله من حال شكواه إلى الله تعالى أثناء دعوته قول الحق عز ثناؤه : ﴿ **فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ** ﴾ [2] .

فدعا على قومه دعوة الهلاك والدمار الشامل للكافرين ، ونجاة المؤمنين : ﴿ **رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا** ﴾ [3] .

وكأن الحق تعالى ألهم قلب نبيه - عليه السلام - حال هؤلاء القوم وحال ذريتهم من بعدهم أنهم كفر من كفر مع ضلالة للمؤمنين ، فلا خير فيهم ولا يحق لهم الحياة ، ودعوة النبى بهذه الصيغة لم تأت من فراغ وإنما بيقين صادق وقلب مستنير أنه لا فائدة فيهم ، ولا أثر لدعوته فى اعتقادهم هم وذريتهم من بعدهم ، لذا دعا بالهلاك الشامل ، فكانت الإجابة من الله تعالى : ﴿ **فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ** ﴾ [4] .

---

(١) سورة المائدة : آية ١١٨ .
(٢) سورة القمر : آية ١٠ .
(٣) سورة نوح : الآيتان ٢٦ ، ٢٧ .
(٤) سورة القمر : الآيتان ١١ ، ١٢ .

وكذلك الحال فى ثمود قوم صالح : وفى عاد قوم هود ، وفى حالات التمرد الجماعى على دعوات الرسل كانت العقوبة من الله تعالى الهلاك الجماعى ، وأيضا فى حالة الخروج عن منهج الخالق سبحانه وتعالى بإباحة ما حرم وإتيان ما نهى عنه يكون الهلاك الجماعى كما هو الحال فى قوم لوط .

ولا يغيب عنا أن العلماء حملة الدعوة إلى الله عز وجل هم ورثة الأنبياء ، وهم صفوة الخلق وأحباب الحق جل وعلا ، الذين قال عنهم فى قرآنه : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ (١) .

فعليهم الاقتداء برسول الأمة إشراقة الرحمة للعالمين كافة ، محمد ﷺ فى منهجية دعوته إلى الله تعالى وإليك بيانها :

١ - الإنذار : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ * وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٢)

٢ - التبشير : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

٣ - التذكير : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣) .

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ (٤) ، ذكر فقط لست مهيمن ، لأن أمرهم ليس بيدك وإنما بيد ربهم ، ذكر إنما أنت مذكر ، لست جلاداً ولا مدمراً ، وبعد أن تذكر يا محمد بين منهج الله عز وجل لمن يعرض عن دعوتك ويتولى كافراً برسالتك أن حسابه على ربه وعذابه أكبر فى الآخرة من أى عقوبة دنياوية تخطر ببالك لقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ ﴾ (٥) .

---

(١) سورة فاطر : آية ٣٢ .
(٢) سورة الشعراء : الآيات ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ .
(٣) سورة الذاريات : آية ٥٥ .
(٤) سورة الغاشية : الآيتان ٢١ ، ٢٢ .
(٥) سورة الغاشية : الآيتان ٢٣ ، ٢٤ .

وثمرة الذكرى أنها تنبه الغافلين وتذكر الناسين ، وتعلم الجاهلين فتزيد المؤمنين إيمانا بربهم بما يحقق لهم المنفعة من عباداتهم : ﴿ **وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ ، ﴿ **فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى * سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى** ﴾ [(١)] .

وثمرتها أن أهل الخشية من الله تعالى تعود عليهم الذكرى بالمنفعة لأنها تصلح عباداتهم فيتحقق لهم مرضات ربهم بما يحقق لهم الأمن والرخاء فى حياتهم والفوز بعلا الدرجات فى رياض الجنات فى آخرتهم ، لأن المؤمنين الذين تذكروا هم أهل السعادة فى الدارين ، ﴿ **وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ** ﴾ [(٢)] .

أما أهل الشقاوة فإنهم يتجنبون الذكرى ، إنكاراً للدعوة وتكذيباً للداعى ، ﴿ **وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى * الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى * ثُمَّ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَى** ﴾ [(٣)] .

٤ - عدم الإكراه فى الدين : ﴿ **لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ** ﴾ [(٤)] ﴿ **أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ** ﴾ [(٥)] .

٥ - عدم القدرة : على منح الهداية أو إلزامها لأحد حتى ولو كان اعز الناس إلى النبى ﷺ وأحبهم إلى قلبه كما هو الحال فى أبى طالب حال غرغرة وفاته ، حين قال له : «**يا عم قل لا إله إلا الله محمد رسول الله تكون لك زخراً عند المليك يوم العرض واللقاء أشفع لك بها يوم الجزاء ، يوم الحساب ، يوم يقوم الناس لرب العالمين**» . كانت الإجابة : يا ابن أخى أخشى ملامة القوم .

مات ولم يوفق للنطق بها فكانت الإجابة من قيوم السماوات والأرض الله لا إله

---

(١) سورة الأعلى : الآيتان ٩ ، ١٠ .
(٢) سورة هود : آية ١٠٨ .
(٣) سورة الأعلى : الآيات ١١ ، ١٢ ، ١٣ .
(٤) سورة البقرة : آية ٢٥٦ .
(٥) سورة يونس : آية ٩٩ .

إلا هو: ﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ (١) .

وفيها بيان أن الهداية منحة وعطاء من خالق الأرض والسماء ، لا يمكن لأحد أن يهبها أحداً ولو كان نبى لعمه أحب الناس إلى قلبه ، الذى آواه ، وفى بيته رباه ، وحفظه ورعاه ، ولكيد الأعداء لم يسلمه وحماه .

٦ - العفو عن المسىء والاستغفار للمذنب: ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ (٢)

٧ - المشورة فى الأمر: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾ (٣) .

٨ - إذا استقر الأمر وعقد العزم وجب التوكل على الله: ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ (٤) .

٩ - سمو الرفعة والتنزه عن الإبادة حتى ولو كانوا كافرين أو مشركين حينما يقول له الأمين جبريل - عليه السلام: إن الله تبارك وتعالى أمرنى إن شئت أطبق عليهم الأخشبين ، جبل أحد ، وجبل أبى قبيس فى مكة .

يكون جواب الحبيب محمد ﷺ: «**لا** ، عسى الله تعالى أن يخرج من أصلابهم من ينطق بـ "**لا إله إلا الله**" فاستحق أن يتصف بالرأفة والرحمة معاً فيما سجله القرآن العظيم من وصف كريم: ﴿ لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٥) .

هذا هو منهج رسول الأمة محمد ﷺ . أين نحن الآن من هذا المنهج القويم؟ وهذا الخلق العظيم لهذا النبى الكريم محمد الصادق الأمين صلوات الله عليه وآله وصحبه والتابعين إلى يوم الدين .

---

(١) سورة القصص: آية ٥٦ .
(٢) سورة آل عمران: آية ١٥٩ .
(٣) سورة آل عمران: آية ١٥٩ .
(٤) سورة آل عمران: آية ١٥٩ .
(٥) سورة التوبة: آية: ١٢٨ .

وقبل أن نتكلم عن مكونات الدعوة ، يجب أن نبين أنواع الهداية أولاً وإليك بيانها :

الهداية أربعة أنواع وهى :

١ - هداية دلالة : وهى تعريف الناس الخير من الشر ، الصح من الخطأ ، فالداعى يدل ، والمعرض يرفض كما فى قوله عز ثناؤه : ﴿ **إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء** ﴾ [1] .

٢ - هداية معونة : وهى التى تتحقق فيها استجابة المدعو للداعى ، وتسمى هداية التوفيق أى بعون من الله تعالى يتم توفيق الداعى بقبول دعوته ، وتوفيق المدعو إلى الهداية فتحقق الزيادة فى الهداية كما فى قوله عز شأنه : ﴿ **وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ** ﴾ [2] .

٣ - هداية بيان : وهى التى يقوم الداعى فيها ببيان وتوضيح منهج الله عز وجل وتقابل بتفضيل الضلالة والكفر عليها من المدعو وتسمى بهداية سلب الواجب ، بالعدول عنه إلى ضده كما هو الحال فى ثمود قوم صالح ما قرره التنزيل : ﴿ **وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى** ﴾ [3] ، أى أن عدم هدايتهم يرجع لعمى بصيرتهم عن رؤية نور الحق ، فأحبوا الكفر وهو ثمرة العمى للبصيرة والبصر عن إبصار منهج العزيز الغفار الذى بينه الداعى .

٤ - هداية تحقيق : وهى ما يتحقق فيها للداعى ثبوت حقيقة الرسالة ، وللمدعو حقيقة ثبوت صحة الهداية بلزوم الطريق السوى ، وهى أعلى مراتب ثمار دعوة الداعى : ﴿ **وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ [4] ، أى ثمرة دعوتك يا محمد هداية حقة للصراط السوى المعتدل فى القول والفعل ، ومن هدى الصراط المستقيم نجا من

---

(١) سورة القصص : آية ٥٦ .
(٢) سورة محمد : آية ١٧ .
(٣) سورة فصلت : آية ١٧ .
(٤) سورة الشورى : آية ٥٢ .

العذاب الأليم ، ونال علا الدرجات فى جنات النعيم .

وهناك نوع خامس من أنواع الهداية :

وهو هداية المشيئة : وهى أن الداعى يذكر قومه ويدعوهم بقول الحق ، وإقامة الحجة ، وقوة البرهان ، وبعد ذلك تترك لهم الهداية اختياريا دون إكراه ، وهى التى فى قوله عز ثناؤه : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ ﴾[1] .

والهدى والهداية هما أول دعامة نزل بها الكتاب المبين على سيد الأولين وخاتم المرسلين سيدنا محمد ﷺ فى قول الحق تعالى : ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[2] ، وهو الهدى والشفاء : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء ﴾[3] ، فمن هدى شفى من بلايا الدنيا ، ومن أهوال الآخرة ، ومن مقومات الهداية مجاهدة هذه الأربعة :

النفس ، والدنيا ، والشيطان ، والهوى وهى أعلى مراتب الجهاد ، فمن جاهد هذه الأربعة نال سبل الهداية لقوله عز وجل : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾[4] .

* * * * * * * * *

---

(١) سورة الكهف : آية ٢٩ .

(٢) سورة البقرة : آية ٢ .

(٣) سورة فصلت : آية ٤٤ .

(٤) سورة العنكبوت : آية ٦٩ .

رابعاً : الدعوة إلى الله تعالى بين المكونات و الحدود

مكونات الدعوة ثلاثة هى :

١ - حقيقة .　　　٢ - جوهر .　　　٣ - حدود .

١ - أما الحقيقة فهى : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ [1] .

وهى دعوة حب معينها وحى السماء ، ثمرتها طهر قلب ، يقينها طاعة الرب عز شأنه ، ينبوعها سلامة فكر ، مدادها إدراك عقل ، حصادها صحة اعتقاد ، ثمارها رحمة وسلام ، جنيها محبة ووئام ، سنامها التعاون على البر والتقوى ، رابطتها ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [2] .

أساسها : ﴿ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ ، ترياقها : ﴿ وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ ﴾ [3] ، معالمها : قول رسول الله ﷺ : «**ليعلم اليهود والنصارى أن فى ديننا فسحة فإنما بعثت بالحنيفية السمحة غداً يلتقى الأحبة محمد وصاحبه**» .

قوام بنائها : ﴿ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [4] .

٢ - وأما الجوهر : فهو قيام الداعى ببيان وإيضاح أصول منهجية الرسالة المحمدية لدين الإسلام الحنيف ، وتمثل فى مجموعها الأركان الخمس وتعرف بالعبادات وشرح وبيان الفروض والحقوق والواجبات والبيوع والمعاملات ، والواجب والجائز ، والسنن والنوافل ، والمكروه والمستحب ، والإحسان والاستحسان يتقدمها جميعا بيان ومعرفة الحلال والحرام ، ويلزم الداعى لذلك ثلاث دعائم هى : قول حسن ، مقترن بصالح

---

(١) سورة محمد : آية ١٩ .
(٢) سورة الحجرات : آية ١٠ .
(٣) سورة آل عمران : آية ١٠٣ .
(٤) سورة النحل : آية ١٠٣ .

العمل ، مع إقرار الداعى أنه من المسلمين اعتزازاً بالدعوة ومفخرة بالنسب ، فإن الإسلام دين الرحمة والسماحة والصفاء ، وهو مهد السماء ونسب الأنبياء عامة فيما قرره القرآن على لسان الخليل إبراهيم - عليه السلام - قول الحق عز ثناؤه : ﴿ **وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ** ﴾ [1] .

وقول الحق عز وجل : ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ [2] ، ولا شك أن أحسن القول وأحبه إلى الله تعالى هو قول الداعى .

وقول الداعى هو أفضل ما يتقرب به المسلم إلى ربه - سبحانه وتعالى - إذا كان قول حسن مقترن بصالح العمل فإن الدعوة ميراث أنبياء ، ومرتبة الأتقياء ، ودرب الطهر والنقاء لقول الحق عز شأنه : ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ [3] .

وجوهر الداعى : حسن القول ولين الجانب وبشاشة الوجه ، وصدق القصد ، فإن ذلك أدعى لإنجاح دعوته ، أما فحش القول وقسوة القلب وكآبة الوجه ، والعنف والغلظة سبب بوار دعوة الداعى وفرار وتنافر الرعية من حوله .

٣ - أما حدود الدعوة فثلاثة هى :

أ - حكمة . ب - موعظة حسنة . جـ - مجادلة بالحسنى .

وهذه الحدود الثلاثة للدعوة أرسى قواعدها رسول الإنسانية نبى الرحمة محمد ﷺ وجعلها أساس منهجية دعوته قيوم السموات والأرض الله لا إله إلا هو الحى القيوم بقوله سبحانه : ﴿ **ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي**

---

(١) سورة البقرة : آية ١٣٢ .
(٢) سورة الأنعام : الآيتان ١٦٢ ، ١٦٣ .
(٣) سورة فصلت : آية ٣٣ .

هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [1] .

وتسمى هذه الثلاثة بمادة بناء لبنات الدعوة إلى الله تعالى وكل داع لا تتوفر فيه هذه الثلاثة مصير دعوته إلى البوار وانفضاض الرعية من حوله والفرار .

والحكمة : تعنى التريس والصبر والتثبيت فى وزن الأمور ووضعها فى نصابها دون تسرع أو همجية أو انحدار أخلاق بتصرفات عشوائية ليست من الإسلام فى شيء.

أما الموعظة الحسنة : فهى إسداء المعلومة بلين ورفق ، سهلة الفهم ، عذبة اللفظ ، حلوة المذاق ، نابعة من قلب حسن ، برئ من الشرك والرياء ، برئ من تحقيق أغراض دنياوية من وراء الدعوة ، بعيدة عن التكبر والتعالى والتطاول على الخلق ، محاطة بشفافية النورانية التى يكسبها الحق تعالى قلب الداعى المخلص ، عند هذه المرحلة يندرج تحت قاعدة ما خرج من القلب ابتغاء وجه الله الكريم ، أثر بقدرته تعالى فى قلب كل صغير وكبير ، وهنا قمة الصفوة فى تبليغ دعوة الداعى إلى الله عز شأنه .

وأما المجادلة بالحسنى : فهى إقامة الحجج والبراهين وإبداء الرأى ، وقبول الرأى الآخر دون تعنت أو تحجر وجمود فى الفكر ، للوصول إلى أصح وأرجح الآراء بمعنى أنه لا يقهر رأى ، ولا يكبت فكر بل تقوم الحجة على الإقناع فلا تتفرق الأمة .

* * * * * * * * *

---

(١) سورة النحل : آية ١٢٥ .

خامساً : ما يجب توافره فى الداعى

لا يمكن لأى إنسان أن يتصدر الدعوة إلى الله تعالى إلا إذا توافر فيه ما يلى :

أولاً :

١ - أن يكون حافظاً لكتاب الله (القرآن الكريم) .

٢ - عالماً متبحراً بتفسير القرآن الكريم .

٣ - عالماً بأسباب نزول القرآن الكريم .

٤ - عالماً بمعرفة المحكم والمتشابه (العام والخاص) ، المجمل والمفصل ، المطلق والمقيد ، المكى والمدنى ، ما تكرر نزوله لأكثر من سبب الناسخ والمنسوخ ، والمنسوخ تلاوة ، والمنسوخ حكماً مثال منسوخ التلاوة : آية رجم الزانى المحصن حتى الموت ، ومثال ما نسخ حكماً : آية حبس الزانية المحصنة حتى الموت .

وتعرف هذه جميعاً بعلوم القرآن .

ثانياً : أن يكون عالماً بمصادر الشريعة الإسلامية وهى أربعة :

١ - الكتاب (القرآن العظيم) .　　　٢ - السنة النبوية المطهرة .

٣ - الإجماع .　　　٤ - القياس .

ثالثاً : أن يكوون عالماً واعياً بسنة رسول الله ﷺ دارساً لها .

رابعاً : أن يكون عالماً واعياً بعلم الحديث .

خامساً : أن يكون دارساً للفقه الإسلامى وأصوله .

سادساً : دراسة ملل ونحل الديانات الأخرى ما استطاع .

ومن الثابت أن سنة رسول الله ﷺ المطهرة تمثل فى مجموعها أربع دعامات هى : -

١ - قول　　　٢ - فعل .　　　٣ - تقرير .　　　٤ - إباحة .

١ - أما القول : فكقوله ﷺ : «**خذوا عنى مناسككم**» .

٢ - وأما الفعل : كقولهم : «**أكل الضب على مائدة رسول الله ﷺ**» .

٣ - وأما التقرير : ما فعله أحد الصحابة وعرضه على رسول الله ﷺ فأقره .

٤ - والإباحة : ما فعله أحد الصحابة أمام النبى ﷺ وسكت عليه .

وبالجملة يجب فى الداعية أن يكون عالماً بالكتاب والسنة ، نقى السريرة ، صبوح الوجه ، كريم الخلق ، من أهل ﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ** ﴾ (١) .

فإذا كان الداعى حليما واسع الصدر ، عالماً بشئون الدعوة وحال المدعوين ، فهو يدعو إلى االله تعالى على بصيرة من أمره ، وهذه سبيل الأنبياء والدعاة من بعدهم فى دعوة أقوامهم لقوله عز ثناؤه : ﴿ **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ (٢) .

وغاية دعوة الرسل ودعاة الأمم من بعدهم إيضاح منهج الله عز وجل ، وبه إقرار توحيده ، وإثبات تسبيحه ، وهو التنزيه عن الشريك والنظير والند تحت قاعدة ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ** ﴾ (٣) .

ونجاح دعوة الداعى يتحقق بغرس أواصر المحبة بين أفراد الأمة ، فتقوى شوكتها ، وتتحد كلمتها ، وييسر الله تعالى سبل الهداية لقبول دعوته فتستقيم أحوال الأمة دون تمزق أو تفرق ، بعيداً عن الجدال والمجادلين تحت قاعدة ﴿ **وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ** ﴾ (٤) .

ونحن اليوم فى حال لا نحسد عليها من تمزق وتفتت ، وقد حذر قيوم السموات والأرض من عاقبة ذلك بقوله سبحانه : ﴿ **وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ**

---

(١) سورة القيامة : الآيتان ٢٢ ، ٢٣ .
(٢) سورة يوسف : آية ١٠٨ .
(٣) سورة الشورى : آية ١١ .
(٤) سورة الأنفال : آية ٤٦ .

تَفَــرَّقُواْ ﴾[١] ، وما نحن فيه الآن من تمزق وضعف واستكانة يرجع إلى عدم اعتصام المسلمين بحبل الله عز وجل ، والولاية من المؤمنين للكافرين لا تكن إلا فى حدود التقية والوقاية ، بما يعود على الأمة بالنفع والازدهار والرخاء ، بمعنى كسب وجذب وأخذ منهم ما لا نملك ، كاختراع وابتكار وتطور للعلوم فى شتى المجالات ، والولاية للتقية حتى تقوى شوكة الأمة وتصبح قوية يمكنها بقوتها أن تحقق ذاتها وتفرض كلمتها فيسمع ويستجاب لها لقوله سبحانه : ﴿ لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً ﴾[٢] .

ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ، وهوالرجوع إلى الله عز شأنه ، والتمسك بمنهج رسوله محمد ﷺ الذى نزل عليه ، وما جلب على المسلمين الآفات إلا البعد عن الخالق عز وجل ، والغفلة عن عبادته وذكره وشكره ، وحسن طاعته ، ولنا فى رسول الرحمة محمد ﷺ خير الأسوة فى قول الحق تعالى : ﴿ ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[٣] .

ولا شك فى أن الإسلام هو دين الرحمة والمحبة والسماحة للمسلمين ولغيرهم من أصحاب العقائد الأخرى ، وليس أدل على ذلك من قول الحق عز شأنه : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾[٤] .

* * * * * * * * *

---

(١) سورة آل عمران : آية ١٠٣ .
(٢) سورة آل عمران : آية ٢٨ .
(٣) سورة النحل : آية ١٢٥ .
(٤) سورة التوبة : آية ٦ .

سادساً : معنى الوعظ

الوعظ : هو إهداء النصيحة إلى الأمة برفق وتلطف بما يحقق إثارة المشاعر وترقيقها وحفز الهمم النائمة لتنشط من مراقدها عاملة بهذا الدين المدعوة إليه .

ويمكن القول أن الدعوة فى جوهرها إقامة نظام الحياة ليستقيم مع أصول الإسلام ببيان الحلال والحرام ، والواجب والجائز ، والندبة والكراهة إلى آخر ما فى الشرع من بيان .

والوعظ : هو دعامة التوصيل إلى القلوب قبل الآذان ، وبحسب قوة مادته وتأثير الواعظ فى موعوظيه يتحقق نجاح الدعوة والداعى معاً فى الخروج بالمدعوين إلى فهم الإسلام فهماً صحيحاً ومعرفة أصوله وإقامة أركانه . . .

وتختلف عملية الوعظ فى شخص عنها فى الآخر ، وبقدر ما أودع الحق تعالى فى كل قلب من شفافية النور تختلف أيضاً درجة التأثير فى القلوب والنفوس ، وبالتالى فى التنفيذ والتطبيق كل على قدر مقدرته على توصيل المعلومة .

إذن الوعظ عملية قلبية وروحية ، يدعمها شفافية نورانية ، أعنى نورانية العلم فإنه نور مقترن بإخلاص الداعى (الواعظ) وصدق الحق تعالى إذ يقول : ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ﴾ [1] .

وكذلك يلتقى مع الوعظ الجيد الناجح عملية نور شرح الصدور فى المدعوين وهى مرتبة : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ [2] .

وبهذا التعريف للوعظ يتضح لنا جلياً أن الأصل فيه نور القلب وشفافية الروح فتحقق بدورها الفعال أهدافه السامية ، حتى إذا عرضت حقائق الإسلام على العقل كانت أشواق القلب فى المدعو دافعاً إلى قبولها بل والدعوة إليها ، أى ينشأ دعاة بتأثير

---

(١) سورة الأنعام : آية ١٢٢ .

(٢) سورة الزمر : آية ٢٢ .

وحب دعاة لما يتركون فيهم من أثر طيب بقناعة حسن فهم وإخلاص مسبوق بوعى فكر كما هو الحال مع مؤمنى الجن فيما سجله عليهم القرآن العظيم حال قراءة رسول الله ﷺ للقرآن وتبليغه الدعوة إبان إشراقها قول الحق عز شأنه: **﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾** [1] .

والوعظ يعتمد فى جوهره على قوة الواعظ ، أعنى قوته فى توصيل موعظته إذ يلزم لذلك أن يكون بليغاً فصيح اللسان ، عذب الكلام خالياً من الغرابة فى اللفظ والتعقيد والتنافر والتضاد ، فكل هذه تعيب الواعظ وتجعل كلامه غير مفهوم ، أما الواعظ الفصيح فيؤثر فى سامعيه مباشرة ، تأثير تخشع معه القلوب وتبكى العيون وتقشعر الجلود ، ثم تلين الجلود والقلوب إلى ذكر الله: **﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾** [2] .

ولا شك أن قوة الواعظ تستمد من هذا الكتاب الخالد مع فصاحة اللسان وإيضاح فى البيان ولذا قال ﷺ: **«إن من البيان لسحرا»** .

فقوة الواعظ البيانية تستمد من البلاغة القرآنية فهو آيات بينات ، وتستنار من السنة المحمدية فهو القائل ﷺ: **«تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبدا كتاب الله وسنتى»** .

وبقوة بيان الواعظ تحقق الرسالة ثمرتها وهدفها المنشود ، دون تردى أو تردد أو جدال أو إعراض أو صدود ، فافهم تنعم بالمراد المقصود ، وارع الواجبات والسنن والمندوب والمكروه والجائز والحدود ، بشر ولا تنفر ، ويسر ولا تعسر ، واعلم أن الله

---

(١) سورة الأحقاف: آية ٢٩ .

(٢) سورة الزمر: آية ٢٣ .

تعالى غفور ودود : ﴿ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ * وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴾ [١] .

والموعظة الحسنة إذا كانت من قلب مخلص يملؤه نور اليقين يستفيد بها كل ذى عقل مستنير ﴿ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا ﴾ [٢] .

وأذكر من مقامات الوعظ مقاما يحضرنى حينما تولى الخليفة عمر بن عبد العزيز الخلافة ، جاءته الوفود مهنئة ، وجاء وفد الشام يقدم التهنئة إلى الخليفة فوقف شاب فى العاشرة من عمره ليتكلم واعظا فى الحضور ، فقال له الخليفة : اجلس يا غلام فليتكلم من هو أسن منك ، فرفض الجلوس الغلام وقال : يا خليفة لو أن المقام هنا مقام سن لكان من الحضور هنا من هو أسن منك بالخلافة ، فسكت الخليفة وأخذ الغلام يتكلم يعظ فى الناس خطبة بليغة فاقت بلاغتها بلاغة الفصحاء والبلغاء ، أبكت العيون والقلوب ، وبكى الخليفة عمر بن عبد العزيز حتى قال : اللهم لا تخلنا من واعظ ، فطوبى لمن أهدى المواعظ .

* * * * * * * *

---

(١) سورة البروج : الآيتان ١٣ - ١٤ .
(٢) سورة النساء : آية ٦٣ .

سابعاً : تعريف الإمامة

الإمامة : هى عهد الله عز وجل يعهد به إلى الصفوة من خلقه ممن ارتضى أن يكونوا أئمة ولا ينال عهد الله عز ذكره ظالم قط ، فمن ارتضاهم الحق سبحانه أئمة لأقوامهم برأهم من الظلم أولاً ، وانظر إلى طيب القول فيما حكاه القرآن العظيم من اختبار الحق عز شأنه نبيه الخليل إبراهيم - عليه السلام - ونجاح النبى فى الاختبار نجاحاً نال بعده عهد الله عز ذكره إليه بالإمامة قوله سبحانه : ﴿ **وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ** ﴾ [١] .

وقد اجتاز الخليل - عليه السلام - هذا الاختبار (الابتلاء) بتمام سنن الفطرة الخمسة وهى :

١ - حلق الشعر . ٢ - نتف الإبط . ٣ - قص الأظافر .
٤ - حلق العانة . ٥ - الختان .

فأتمهن على أكمل وجه تماماً نال معه عهد الله عز وجل إليه بالإمامة : ﴿ **قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا** ﴾ طمع النبى صلوات الله وسلامه عليه فى أن تكون ذريته جميعاً أئمة من بعده ، ولكن الحق تعالى بين له أن الإمامة عهده سبحانه وتعالى ولا ينال عهد الله تعالى ظالم : ﴿ **قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ** ﴾ .

فثبت أن الإمامة هى عهد الله عز وجل ولا يناله ظالم ولو كان ذرية نبى هو أبو الأنبياء خليل الرحمن عليه السلام . إذن كل من منحه الحق تعالى عهده بالإمامة فى قوم فليرع العهد ، وليتق الله عز شأنه فيهم ، وليحذر الظلم فإنه لا يجتمع الظلم والعدل ، ولا النور والظلام ، ولا الحق والباطل ، ولا الخبيث والطيب . . . الخ .

فكل من منحهم الحق تعالى عهده وعهد إليهم بالإمامة ، فليكونوا قدوة ومثلاً يحتذى به فى كريم الصفات وطيب الأقوال والأفعال ، ومكارم الأخلاق حتى تجاب

---

(١) سورة البقرة : آية ١٢٤ .

دعوتهم وتجنى ثمارها ، ويؤثر الإمام فيمن يؤمهم إلى الحسن ومن الحسن إلى الأحسن ، ومن الأحسن إلى الإحسان ، فلابد أن يفعل ما يقول من الحسن والأحسن والإحسان كقدوة إمامهم ، ولينته عن السيئ والأسوء والإساءة عامة ، فإذا ما رأوا قدوتهم تلزم فى سلوكها بما تعلمه الناس أمراً ونهياً كان أدعى أن تحقق الإمامة أهدافها وتأتى الدعوة ثمارها . . .

أما الأئمة الذين يقولون مالا يفعلون فإنهم ينالون مقت الله تعالى الأكبر: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ** ﴾[1] .

والإمامة سمت الأنبياء ودرب من نالوا فيض السماء ، وشرعه الأصفياء ، ونهج الأتقياء ، ونبراس الصادقين ، وحصاد المخلصين ، ونور العارفين ، ورياضة الطائعين ، وأنفاس العابدين ، وقدوة المتقين : ﴿ **وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا** ﴾[2] .

فمن عهد الحق تعالى إليه بالإمامة وأخلص لله عز ذكره قوله وفعله ، نال عند المليك دار المقامة ﴿ **الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ** ﴾[3] . وحسبك قول الشاعر :

لا تنه عن خلق وتأت مثله عار عليك إن فعلت عظيم

فالإمام الصادق القول المطبق الفعل فيما يقول هو أقوى تأثيراً فى الناس ، وأسرع وصولاً إلى قلوبهم ، وتقويماً فى سلوكهم وأفعالهم ، وصدق أقوالهم ، تحت قاعدة : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ** ﴾[4] .

فمن ثمرات الصدق : مطابقة القول للفعل ، فإنه مفتاح الوصول وسر القبول ، وهو من حسن شمائل الأئمة يظهر أثره جلياً فى الأمة ، فيعدل السلوك ويُحسن الأخلاق فتؤدى الأمانات ، وتنصلح العلاقات فتقوى الأمة ، وتنقشع الغمة ، ولا

---

(١) سورة الصف : الآيتان : ٢ ، ٣ .
(٢) سورة الفرقان : آية ٧٤ .
(٣) سورة فاطر : آية ٣٥ .
(٤) سورة التوبة : آية ١١٩ .

يغيب عنا أن مرتبة الصدق والصديقين تأتى فى المقام الثانى من مقامات الإنعام الربانية فهى مرتبة تعقب النبوة : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ [1] .

نلاحظ فى النص القرآنى الكريم أن مرتبة الصدق والصديقين بعد النبوة ، وسابقة على مرتبتى الشهداء والصالحين ، ولا يغيب عنا أيضاً أن هذه الأمة المحمدية نالت درجة الخيرية على سائر الأمم بثلاثة أشياء :

١ - أمر بالمعروف . ٢ - ونهى عن المنكر .

٣ - وإيمان بالله مبدع الأكوان جل وعلا .

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [2] .

ولا شك أن الأئمة هم أولى دعامات هذه الأمة أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر ، ونصحاً وإرشاداً وترغيباً وتقويماً وتهذيباً ، والإمام يحتاج إلى صبر ومثابرة ولين فى الجانب دون غلظة أو قسوة أو كبر أو مكابرة .

فإن الدعوة إلى الله تعالى فيض السماء وسمت الأنبياء ، وهى سبيل الهداية ، والوقاية من كل فتنة وغواية ، فيها هداية الضالين ، وقهر المشككين ، وتثبيت المذبذبين ، وقناعة المترددين ، وتنبيه الغافلين ، وإيقاظ النائمين ، وتذكير الناسين ، وهى حكمة بالغة ، وشمس ساطعة ، وقوة قاهرة للأعداء ، وحصن منيع من طفرات الفكر السويداء ، فكلما هبت ريح التفريق والشتات بين الأمة عن طريق تقسيمها إلى طوائف وجماعات متنازعات ، جاد الدعاة بالزود عن المبادئ الإسلامية ، وأظهروا وبينوا القواعد الأساسية التى أرساها رسول الإنسانية سيدنا محمد ﷺ ، ووقفوا فى وجه

---

(١) سورة النساء : آية ٩ .

(٢) سورة آل عمران : آية ١١٠ .

كل من توسوس له نفسه إشاعة أو نشر فكر فاسد ليس من الدين فى شىء فيتصدى له حماة العقيدة بحجة قوية الأركان ، عظيمة البنيان ، غاية فى الدقة والبيان ، فيزول كل فاسد ولا يجد له بين المسلمين مكان ، وانظر إلى طيب القول : ﴿ **وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا** ﴾ (١) .

فالصبر دعامة هامة فى حياة الأمة والأئمة ، لما له من كريم الصفات وبالغ الأثر فى النفوس والقلوب من قوة التحمل ، فهو طاقة فى كيان النفس بمعنى أنها تتحمل شيئاً وهى له كارهة ، والصبر أعظم من الشكر ، إذ الشكر يستوجب الزيادة : ﴿ **لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ** ﴾ (٢) ، أما الصبر فيستوجب معية الرب لعبده الصابر : ﴿ **وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾ .

كما يستوجب حب الرب جل وعلا لعبده الصابر : ﴿ **وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ** ﴾(٣) .

ولذا كان أمر الحق لحبيبه محمد ﷺ بالصبر ، وأن الدعوة إلى الله تعالى حكم به على الدعاة وأمرهم بالصبر فى تبليغ دعواهم أقوامهم ، وأن من يتعجل ولم يتحل بالصبر وآداب الداعية التى هى آداب النبوة لا جدوى فى دعواهم ، ولا فائدة فى ممشاهم ، ولا مسعاة : ﴿ **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ** ﴾ (٤) .

أى اصبر يا محمد فى دعوتك لقومك مهما اشتد إيذاؤهم إليك فهذا حكم ربك عهد به إليك ولا تكن كيونس فى دعوته لقومه ، وهو صاحب الحوت ، إذ لم يتحل بآداب النبوة وبصبر وثبات الداعية ، وآداب النبوة ، الذى منه أدب الدعاة أدب ربانى ، لأن العلماء هم ورثة الأنبياء ، وهم حملة راية الدعوة من بعدهم ، ولذا قال الرسول الأعظم محمد ﷺ : «**أدبنى ربى فأحسن تأديبى**» ، فنعم الأدب الربانى الذى ما بعده من أدب .

* * * * * * * *

---

(١) سورة الأنبياء : آية ٧٣ .
(٢) سورة إبراهيم : آية ٧ .
(٣) سورة آل عمران : آية ١٤٦ .
(٤) سورة القلم : آية ٤٨ .

ثامناً : معنى الإمامة

جاء لفظ الإمامة فى القرآن على معان عدة منها :

١ - تأتى الإمامة بمعنى القدوة والتعليم كما فى قول الحق عز ذكره قال : ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ (١) .

٢ - وتأتى بمعنى القدوة والهداية : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ (٢) .

٣ - وتأتى بمعنى النبوة والملك والهداية كما فى قول الحق سبحانه : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ (٣) .

٤ - وتأتى بمعنى الكتاب : ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾ (٤) ، أى بكتابهم الذى أحصى عليهم كل صغيرة وكبيرة .

٥ - وبمعنى الكتاب صراحة كما فى قوله سبحانه : ﴿ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾ (٥) ، أى دليلاً إذا لزموا ما فيه ، نالوا رحمة الله عز وجل .

٦ - وأيضاً بمعنى الكتاب فى قوله عز شأنه : ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴾(٦) ، أى فى كتاب دقة فى الحصر لأعمالهم ببيان ووضوح ليس له نظير ، حجة عليهم لا يستطيعون الإنكار فى شىءٍ مما فيه .

٧ - وتأتى بمعنى القدوة والدليل فى التقوى والعبادة والإرشاد كما جاء فى دعاء عباد الرحمن وهم الصفوة فى علو النسب إذ نسبهم سبحانه لنفسه بقوله : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ﴾ (٧)

---

(١) سورة البقرة : آية ١٢١ .
(٢) سورة الأنبياء : آية ٧٣ .
(٣) سورة القصص : آية ٥ .
(٤) سورة الإسراء : آية ٧١ .
(٥) سورة الأحقاف : آية ١٢ .
(٦) سورة يس : ١٢ .
(٧) سورة الفرقان : آية ٦٣ .

وفى جملة دعائهم لربهم عز ثناؤه: ﴿ **وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا** ﴾ (١) .

أى اجعلنا لأهل التقوى قادة ، نقودهم إليها ونهديهم وندلهم عليها ، وهذه الإمامة هى التى نعنيها ، وجاءت الإمامة فى بعض الأحاديث النبوية الشريفة بمعنى الحكم فى بيان من تستجاب دعوتهم فى قوله ﷺ: «**والإمام العادل**» .

وجاءت أيضاً فى الحديث النبوى الشريف بمعنى القدوة والقيادة فى الصلاة والإرشاد فى الدعوة إلى الله تعالى قوله ﷺ فى بيان من لا تستجاب دعوتهم: «**ورجل أم قوماً وهم له كارهون**» .

والذى أعنيه فى هذه المقامات جميعها هو الإمام القدوة فى الهداية والإرشاد والقيادة الروحية فى الدعوة والصلاة والتعليم ، وإنما بينت كل الأصناف من باب الاستزادة ليعرف كل داعية كيفية مراده .

* * * * * * * * *

(١) سورة الفرقان: آية ٧٤ .

تاسعاً : مقومات الداعى

من أجل دعوة راسخة وكلمة مؤثرة ناجحة تصغى لها القلوب قبل الآذان وتنشرح بها الصدور وتهدأ النفوس ، وتطمئن القلوب فتشرق شمس المعرفة ، ويتبدد وينقشع ظلام الجهل ، ويسطع ضياء العلم ونور اليقين ، فتحدد كلمة الأمة وتقوى شوكتها ، وترتفع رايتها عالية خفاقة فوق ربوع أرض الإسلام فى مشارق الأرض ومغاربها ، فى كل مكان يذكر فيه اسم الله عز ثناؤه من كون الله الكبير ، يجب توافر الآتى فى كل داعية يدعو إلى الله تعالى على بصيرة :

١ - أن يكون ذا شخصية متميزة ، قوى الشخصية ، واضح الصوت ، عذب الحديث ، هادئ النفس ، واسع الأفق .

٢ - أن يكون حافظاً للقرآن الكريم ، محسناً لتلاوته دارساً للحديث أعنى الحديث القدسى والنبوى ، ملماً بقسط وافر من السنة المطهرة ومن العلوم الحديثة ليتمكن من ربط الدنيا بالدين .

٣ - أن يكون محبوباً فيمن يدعوهم ، حسن الخلق ، متصفاً بالأمانة والصدق ، مخلصاً فى إهداء النصيحة إلى مدعويه ، حريصاً على مصلحتهم ، لا يبخل بالمعلومات التى تفيدهم دنيا ودين .

٤ - أن يكون أسلوبه الحكمة والموعظة الحسنة ، ينتقى الكلمة العذبة المذاق ، سهلة الفهم ، كثيرة المعنى ، قليلة المبنى ، نفاذة إلى القلوب و الآذان ، تُغير من كل سلوك معوج ، وتثبت القلوب على الإيمان ، وتُحى النفوس وتشرح الصدور معها بآيات الرحمن . ولذا جاء فى وصايا لقمان الحكيم لابنه وهو يعظه : "يا بنى زاحم الحكماء والعلماء واجلس على ركبتيهم فإن الله تعالى يُحى القلب الميت بنور الحكمة كما يُحى الأرض الميتة بغيث السماء" .

٥ - أن يكون أسلوبه الإقناع ، معينه الحكمة والموعظة الحسنة ، وأن يعاون فى حل مشاكل الناس والإصلاح بين المتخاصمين بما يشيع روح التآخى والتآلف بين أفراد

المجتمع .

٦ - أن يداوم على الإطلاع والاستزادة من العلم والتفقه ، ومتابعة ما هو جديد فى العالم حتى يتمكن من الإجابة على أسئلة الناس واستفساراتهم ، فإن الإمام المثقف ثقافة عالية فى شتى مجالات العلوم وما يخص الدنيا والدين ، يكون متمكناً من إجابته مقنعاً للسائل ، يقف على أرض صلبة ، فإن الثقة من النفس منبعها القوة العلمية ، وبالتالى يتبعها قوة الشخصية التى هى دعامة التأثير فى المدعوين ، فتحقق الفائدة التى ينشدها الداعية وهى القيمة أو المحصلة المرجوة من الدعوة ، وهى الهداية والإرشاد والإصلاح والتقويم يساوى مجتمع إسلامى سعيد .

٧ - من فطانة الداعية أن يبتعد عن التيارات الحزبية أو الطائفية ، ويندمج فى المجتمعات عامة دون تمييز أو تحيز .

٨ - أن لا ينظر إلى وظيفته على أنها وسيلة لكسب العيش فحسب ، بل إنها واجب مقدس يؤديه فى أى مكان وفى أى وقت فيرتقى بنفسه من روتين الوظيفة إلى سمو الرسالة فإن الدعوة إلى الله تعالى رسالة ، الأجر فيها من الله عز وجل .

٩ - أما الداعية الذى يعد للدعوة فى الخارج فلابد له فوق ما سبق أن يكون ملماً بظروف البلد الذى سيعمل فيه وأحوال المسلمين فيه ، وباللغة التى يتحدثونها ، وهذا يحتاج إلى إعداد خاص بالإضافة إلى الصفات السابقة ، نذكر منه على سبيل المثال :

أ - أن يكون ملما بمعرفة أحوال المدعوين وعاداتهم وطباعهم وبيئتهم ، وغير ذلك مما يساعد على تقبلهم دعوته .

ب - أن يكون مطلعاً على وسائل الإيضاح اللازمة لتوصيل رسالته إلى مخاطبيه .

جـ - أن يراعى حال المخاطبين من قدرات فهم وإدراك وذكاء وغيرها ، عملاً بقول رسول الله ﷺ: «**أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم**» .

فإن طبقات المخاطبين تختلف باختلاف عقولهم ، وبحسب ما أودع الحق تعالى ،

فى كل قلب من فهم وإدراك وذكاء ، وكذا مراعاة حال المخاطبين فى الإطالة أو التقصير فإن كثرة الكلام يسلب بعضه بعضاً ، فخير الكلام ما قل ودل ، كلام قليل المبنى كثير المعنى يؤثر فى مستمعيه يفيد إفادة مباشرة دون حشو أو إطناب أو مغالاة ، فإن من فطانة الداعية قصر الخطبة وتمام المعنى مع مراعاة أنه من تعلم لغة قوم أمن مكرهم .

د - أن يكون ذا طاقة حية محسوسة لدعوته ، فاهماً لأمر الدعوة فهماً دقيقاً ، مؤمناً بقضيته حتى تصدر عن قناعة واطمئنان .

١٠ - من مقومات نجاح الداعية أن يكون لين الجانب مبرء من القسوة والغلظة يسدى النصيحة برفق يكسوه الضراعة والخشوع ، مجرد من الكبر والرياء ، فإن النصيحة من قلب خاشع ضارع أدعى أن تخشع منها وتستجيب لها القلوب .

* * * * * * * * *

عاشراً : الجوانب التربوية فى إعداد الدعاة

الدعوة إلى الله تعالى هى فى الأساس مهمة الأنبياء ، ورسالة المرسلين ، وميراث الدعاة المخلصين ، والأمة الإسلامية عامة مكلفة من قبل الله عز وجل بتبليغ الدعوة ونشرها بين العالم كافة ، دل على ذلك قول الحق عز ثناؤه : ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾[1] .

وقوله عز شأنه : ﴿ **فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ** ﴾[2] ، والدعاة على وجه الخصوص يقع على عاتقهم أمانة نشر الدعوة حيث عهدت إليهم المجتمعات الإسلامية بهذا الدور ، لمساعدة الأفراد على الفهم الصحيح للدين الإسلامى بالشكل الذى يتلائم وسماحة تعاليمه ، على أن ينعكس ذلك فى سلوكياتهم وفى تطوير مجتمعاتهم .

وحتى تأتى الدعوة إلى الله تعالى بالثمرة المرجوة فلابد أن يكون العمل فى مجالها عملاً صالحاً له تخطيط وتنظيم وتدريب ، لذا يسعى العلماء للتدريب على توصيلها وإعداد من يتولون أمرها منذ الصدر الأول للإسلام فى مراكز وأماكن أعدت لذلك ، نال المسجد القسط الوافر منها بالإضافة إلى وظيفته الأساسية فى العبادة .

وأقصد بمراكز إعداد وتدريب الدعاة : المعاهد والمؤسسات التى تعلم الدعاة وتدربهم على اختلاف مستوياتهم وأنواعهم من علماء وفقهاء وخطباء ووعاظ ، فكل هذه المسميات تدل على مسمى واحد هو دعاة الأمة وحملة لواء دعوتها ، وهم الأئمة وهم الخطباء والوعاظ الذين عهد إليهم مهمة الدعوة وتوصيلها إلى شتى مواطن الإسلام ، وتنوير أبنائها وتبصيرهم بفهم عقيدتهم وأصول دينهم بما يحقق النجاح والفلاح للمسلمين كافة فى العاجل والآجل .

ولا يغيب عنا أن الإعداد التربوى هام وضرورى للدعاة والمعلمين على السواء فإن الاثنين يستقون العلم والمعرفة من معينها ، أعنى الدراسات الأكاديمية فى أعلا صنوفها ، وذروة تفوقها على أيدى المتخصصين ثم يصبونها أيضاً فى نفس المعين

---

(١) سورة آل عمران : آية ١٠٤ .

(٢) سورة التوبة : آية ١٢٢ .

لتزدهر وتنمو عقول مفكريها وتنهض بركب الأمم فى تطور وازدهار نموها ، فمن يتعلمون فى معاهد الإعداد هم غداً المعلمون ، وهم الأئمة الراشدون .

وكما أن وزارة التعليم تعتنى بالمعلم وتدربه على أحدث وأفضل أنواع وسائل الإيضاح ، وأفضل وأحدث طرق التدريس حتى يتيسر له توصيل المعلومة لتلاميذه ، فإن القائمين على الدعوة وشئونها يهتمون أيضاً بالداعية ويعدونه إعداداً جيداً يتناسب مع مواكبة العصر وما فيها من تطور وتنوع فى الأفكار على اختلاف صنوفها .

ولا شك أن قوة الداعية العلمية وقدرته الذاتية ، أعنى المواصفات التى ذكرتها فى فصل مقومات الداعية تقف سداً حاجزاً وحصناً منيعاً فى مواجهة الأفكار الهدامة ، والعقول المتبلدة من الذين يتداخلون فى الدعوة ويتطاولون عليها ، وهم ليسوا من أهلها ، ولا من فرسان ميدانها ، ولا من رجال هذا المقام ، فكثيراً ما نجد غير المتخصصين ، الذين لا يمتون إلى تعليم الدين بصلة يتداخلون تداخلاً سافراً فى الدعوة مما يحدث الاضطرابات والشكوك من التضارب والتعارض فى النصوص ، وفى فهم الأصول ، مما يؤدى إلى نفور المدعوين وشتات الأفكار ، لأن الدعوة لها رجالها المتخصصون حملة رايتها ، المراعون قدسيتها ، المدركون لأهميتها ، المخلصون فى نشرها والقيام على أمرها .

وإننى فى هذا المقام أهيب بغير المتخصصين أن يتركوا الدعوة وشأنها ، وأقول لهم لماذا التدخل فيما نعرف وفيما لا نعرف ، فإن الدعوة لها رجال تخرجوا فى أكاديميتها وكلياتها ومعاهدها ، وأخذوا معارفهم على أيدى العلماء والمتخصصين وشربوا علومها من المهد إلى اللحد - علوم الدين - فإنه من غير الممكن لرجل عادى أن يفتح عيادة للطب يُطيب فيها ويقوم بعمليات جراحية ، والكشف ووصف الدواء من غير أن يتخرج من كلية الطب ، والعجيب كل العجب أننا لا نجد تطاولاً ولا تداخلاً بمعرفة وغير معرفة إلا على الدعوة للأسف ، ولا أدرى لماذا يتكلم الإنسان فى ما ليس له به علم .

من أجل هذه التجاوزات والتداخلات أقول لكل من يتطاول على الدعوة بالدخول فيها ويتكلم بغير علم أن يكف عن جهله ويترك الدعوة لأهلها .

* * * * * * * * *

الحادى عشر : أهمية إعداد الداعية

تعتبر عملية إعداد الداعية بالغة الأهمية لدوره الفعال والمؤثر فى تحقيق أهداف الدعوة الإسلامية لما يسند إليه من مهام ومسئوليات روحية وعقلية واجتماعية ، تستلزم قدرات خاصة ومهارات عالية إرشادية وتوجيهية ذات طابع فكرى مميز ، ذو قناعة وتأثير فى من يدعوهم ، فيتقبلوا ويقبلوا عليه بثقة واطمئنان .

لذا فإن مؤسسات الإعداد تستمد أهميتها من أهمية دور الداعية فى المجتمع ، إذ نجاح الداعية يتوقف على جودة الإعداد وتطويره من منظور تربوى للقضايا العصرية ، وأعنى بالنظرة التربوية : ترجمة الحقائق المجردة التى ينطوى عليها فقه الدعوة إلى معايير سلوكية ، يمكن أن تظهر سلوكية ، يمكن أن تظهر فى صورة مقررات ، وأنشطة ووسائل تبلور مفهوم الدعوة وتيسر نشرها .

وللتعرف على جوانب الإعداد التربوى فى إعداد الدعاة نجد أنه ظل قاصراً قديماً على العملية التقليدية كالمسجد أو التخرج من المؤسسات الأكاديمية دون تخصص أو تدريب يُنمى القدرات ويطور المفهوم ، ويُحدث الأسلوب ، ويُحفز الهمم ويرتقى بمستوى الأداء والتبصر فيما يدور فى العوالم من حولنا .

أما الآن مع طبيعة العصر وتطور الأفكار والعلوم الحديثة ، فقد طورت المدارس والجامعات الإسلامية نفسها بتحديث أساليب التعليم والتعلم بها ، آخذة فى الاعتبار أحدث الطرق فى إعداد الدعاة وتطويرهم بما يتناسب مع متطلبات العصر الفكرية والمادية ، وعوامل نجاح هذا الإعداد وتحويله إلى برامج فعالة مؤثرة مع نظرة فاحصة إلى واقع عالمنا المعاصر وتصور مستقبلى لما يجب أن يكون عليه الدعاة وثمرة إعدادهم .

وعلى ضوء الدراسات والأبحاث والاستنتاجات العلمية الحديثة ، وما تم الاتفاق عليه بين التربويين وعلماء الإسلام ، أعنى القائمين على المؤسسات الأكاديمية بالكليات الإسلامية ومعاهد إعداد وتخريج الدعاة ، يمكن أن نسميهم قادة الفكر الإسلامى ، إنه يجب أن يتميز إعداد الداعية فى طبيعة مادته العلمية وأساليب تحديثها وتوجيهاته بعناية

تفوق بكثير إعداد المعلم ، بما يجعل الداعية متفوقاً فى شتى جوانب الثقافات وعالم المعرفة والفكر الناضج الذى يواكب تطورات عصره ومقتضيات دعوته بأحدث ما فى العصر من أسلحة الثقافة ، وتكنولوجيا الفكر الراشد النافع الذى يبنى الأفراد والأمم ، ويلحق بنمو الحضارة الإسلامية بما يجعل الإسلام فى مكانته الصحيحة بين أهل الأديان الأخرى .

لأن المعلم كما ذكرت من قبل يُعلم مادة فى مرحلة من المراحل ، أما الداعية فيُعلم جميع طبقات مجتمعه على اختلاف طبقاتهم وثقافاتهم ، لذا فإن إعداده تربوياً يتطلب جهداً خاصاً ، وثقافات فوق العادة تمكنه من التفوق الصحيح لمفهوم الإسلام ودعوته ، وإقناع كل مجادل أو إعادة كل زلَّ خطأ منه فى فهم الدعوة ، فإنه يعود إلى صوابه بحجة وافية وأدلة قوية خالية من ريب الشك والمراء كما هو الحال فى الخليل إبراهيم - عليه السلام - مع قومه : ﴿ **وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ** ﴾ [1] .

ولا شك فى أن قوة الداعية العلمية والثقافية هى سر إقناعه وتأثيره فى مدعويه ، وهى أيضاً سر تأثيرهم به فى أقواله وأفعاله وحُسن الإصغاء إليه ، والأخذ بما يقول ، وهى أعلى مراتب النجاح فى الداعية .

وهذا يتطلب يُسر فى الأسلوب ، وقوة الحجة ، وفصاحة اللسان ، وعذوبة النطق ، فإن الكلمة الصحيحة قوة فى البيان ، والمنطق العذب أسرع فى الوصول إلى القلوب قبل الآذان ، ويمكن أن نجمل نقاط الإعداد التربوى للداعية فيما يلى :

١ - طبيعة عمل الداعية ترتبط بنوع الدعوة التى سيقوم بالعمل فيها من حيث أهدافهم ومحتواها المعرفى والمهارى ، كما ترتبط بطبيعة أفراد المجتمع ومستواهم الفكرى والثقافى بمعنى أن كل مجتمع له نوعية خاصة من الدعاة بما يتناسب وطبيعة ذلك المجتمع ، والمخاطبة على قدر العقول ، وبقدر الحاجة إلى المعرفة ، وطاقة التقبل للمعلومة فيهم دون ملل أو شرود ، أى العرض يتناسب مع الطلب دون إسراف يؤدى

---

(١) سورة الأنعام : آية ٨٣ .

إلى الملل ، أى : عرض لقضية من قضايا المجتمع الذى يعيش فيه ، ثم معالجة لها بأسلوب يفهمه العامة قبل الخاصة ، ويمكن أن نسميه عرض للموضوع ثم شرح يعقبه استدلال وبرهان .

أعنى بالاستدلال أن يستدل على ما يقول بآيات القرآن العظيم فإنه دستور الأمة وكل موضوع دعامته الاستشهاد فيه بآيات القرآن أدعى للقبول ، بل للتسليم به دون جدال أو مراء .

وأعنى بالبرهان : أن يبرهن على صدق قوله بقصص من حياة الرسول الأعظم ﷺ وصحابته رضوان الله تعالى عليهم أجمعين مستدلاً على ما يقول بالأحاديث النبوية الشريفة والآثار الصحيحة فإن السنة المطهرة تذخر بالكثير من الموضوعات التى قضى فيها رسول الله ﷺ والصحابة من بعده فى قضايا مماثلة فى عصرنا هذا . . .

فعلى سبيل المثال عند الكلام على موضوع تمييز بعض الأبناء من الآباء ، وحرمان الآخرين ، نذكر قصة الرجل الذى جاء إلى رسول الله ﷺ وقال له : أشهدك يا رسول الله أننى أعطيت أحد أبنائى حديقة . فقال له رسول الله ﷺ : «**هل أعطيت الباقين مثله؟**» قال الرجل : لا . فقال الرسول ﷺ : «**أشهد عليه غيرى فإننى لا أشهد على جور**» ، وهكذا فى قضية سداد الدين وعند مطالبة اليهودى رسول الله ﷺ بغلظة كاد الفاروق عمر أن يضرب عنق الرجل فنهاه الرسول ﷺ بقوة وقال : «**لا يا عمر . كنا أحق بغير ذلك منك**» . قال : كيف يا رسول الله؟ قال ﷺ : «**تأمرنى بحسن الأداء ، وتأمره بحسن المطالبة**» وهكذا حياة الرسول الأعظم مدرسة للفضائل والمكارم .

٢ - تتطلب مهنة الداعية نوعاً خاصاً من الاستعداد النفسى والقدرة والكفاءة التى يمكن تحقيقها عن طريق إعداد مهنى جيد التخطيط ، علمى المنهج بأحدث الأساليب التى تجمع بين الشفافية الروحية والنورانية العلمية فى الداعية ، فيلتف حوله كل من يدعوه ، ومن ثمرة ذلك أن يحبوا الدين ويعشقون الرسالة المحمدية الخاتمة بسبب الإمام الداعية الواعظ فيهم ، والعكس صحيحاً عند النفور من الداعية لعقم الأسلوب أو

ضعف المعلومات أو عدم القدرة على توصيلها ، فكثيراً ما نجد علماءً كباراً لكنهم عاجزون عن التوصيل لمستمعيهم وموعوظيهم فلا يُفهم من أساليبهم من أين ابتدأوا وأين انتهوا ، وماذا يريدون؟ ويرجع هذا لعدم إعداد هؤلاء العلماء لطريقة عرض الدعوة وليس طريقة جمع العلم فقط .

٣ - الداعية لا يعمل مستقلاً عن القوى والمؤثرات المحيطة به أو بمعزل ومنأى عنها ، وإنما يرتبط عمله ارتباطا وثيقا بمجتمعه الذى يعيش فيه بمحتوى دعوته ، أعنى الذى يحوى دعوته ويقوم بها فيهم ، فمحتوى الدعوة يرتبط بنوعيات أفراد المجتمع الذين يتلقون هذه الدعوة والنظام الذى يعمل فى ظله ، ولذلك فإن تقويم عمل الداعية يجب أن يتم على ضوء الظروف المحيطة به دون معزل عنها ، أو عدم إدراك حال المخاطبين وما هم عليه من مستوى ، فيتكلم بمستوى أقل أو أعلى من مقدورهم الفهمى و الفكرى ، فإن سوء التقدير لمقتضى حال المدعوين صعوداً فى الأسلوب أو هبوطاً عن المطلوب ، أى أسلوباً أعلى عن فهمهم أو أقل من مستوى فكرهم ، يفشل الداعية والدعوة لا تؤدى ثمارها .

كما تتأثر الدعوة بحالة المدعوين الصحية والنفسية والاجتماعية من مرض وفقر وسوء تغذية ، ورعاية صحية واجتماعية ممثلة فى الخدمات من طرق ومواصلات انتقال ، ومواصلات سلكية ولاسلكية ، وعذوبة الماء ونقاء الهواء ، وانعكاسات الضوضاء والتلوث عن الأسماع والصحة العامة ، التى بمقتضاها يتحقق حسن الاستماع للداعية والقدرة على الفهم والإدراك والاستيعاب ، لأن مهمة الداعية لا تقتصر على تفهيم المسلمين أحكام العبادات والمعاملات فى الإسلام ، و إنما ترتقى إلى إرشادهم إلى شتى أنواع المعارف فى العلوم الدنياوية والدينية بما ينمى المهارات والقدرات فيتحقق ازدهار المجتمع المسلم ورقيه وتطوره ، وهذا يتطلب إلمام الداعية بأحدث ما فى العالم من العلوم والمعرفة ، ولذا جاء فى الأثر : «**علموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل**» هذا بجانب الإرشاد الدينى فى استهلال الدعوة .

وفيه الإشارة إلى دعاة الأمة أن يرشدوا شبابها ويحثونهم على تعلم وفهم كل ما فى العصر من العلوم والمهارات فى شتى مجالات الحياة حتى لا تتخلف الأمة بتخلف أبنائها عن ركب الحضارة العالمية فى الأمم الغير مسلمة والتى تتطور وتنمو فيها العلوم والابتكارات والاختراعات بطريقة أبهرت العقول ، وحار معها الفكر ، مع مراعاة أن الإسلام دين ودنيا صالح لكل زمان ومكان ، ليس مجمداً ولا منغلقاً ولا بعيداً عن مقتضيات الحياة الضرورية اللازمة لأفراده ومجتمعه ، فيلزمه العالم المخترع والمبتكر والطبيب البارع ، والمهندس المتطور ، والمفكر والباحث فى شتى مجالات الحياة ، زراعة ، وتجارة ، وصناعة ، كل هذا يرشد إليه ويحث عليه الداعى إلى الله تعالى على بصيرة أى : بإدراك ووعى للواجبات الملقاة على عاتقه ، أى : أنه متبصر بأمور دينه ودنياه .

وليست الدعوة قاصرة على طلب وشرح الأمور الدينية فقط ، أو أنها دعوة للتجمد والتقاعس ، وإنما دعوة فكر وعمل وتحضر ونماء وازدهار ورقى وتقدم ، تتمثل فى إرشاد الشباب والكبار إلى الأخذ بما فى العصر من أحدث أساليب العلوم والرقى والتطور أخذاً بالأسباب مع ترك مقتضيات الربوبية للواحد الوهاب عز شأنه وهو ما يعرف بالتوكل على الله سبحانه ، فمهمة الزارع أن يمهد الأرض ويغرس البذر ، أما الإنبات والنمو والثمر فهذا اختصاص رب القدرة سبحانه ، وكذا الصانع عليه أن يُدير مصنعه ويعده بأحدث ما أنتج العصر من المعدات ، أما عملية التوفيق ونجاح الصنعة فهى من الخالق سبحانه ، وهكذا نتوكل على الله آخذين بالأسباب ، مع ترك الأمور إلى مسببها الخالق عز شانه ، ليس تواكلاً وهو تعطيل الأسباب ، وهكذا من مهمة الداعى وإرشاده للمدعوين فى دعوته .

٤ - أن عمل الداعى لا يقتصر على تمكين المسلم من فهم واستيعاب أمور دينه ، وإنما توجيهه نحو استخدام طاقاته وتنمية أفكاره وقدراته للاستفادة منها فى حياته العملية ، فالداعى دعامة من دعامات المجتمع الذى يحوى دعوته ، أى أنه مواطن فى المقام الأول يتأثر بكل ما يدور من حوله فى الوطن ، فمن واجبه حل المشكلات

مشاركة فعالة عن طريق مشاركة الشباب بأفكاره وحفز وتنمية البناءة منها وتوجيهها إلى طاقات البناء والإعمار ، وتصحيح الفاسد منها الذى يدعو إلى التخريب والدمار ، وهذا يتحقق بالتقرب إلى الشباب والتعرف على ما يؤلمهم وما يفرحهم ، والشد على أيديهم إلى ما يحقق سعادتهم ويوفر الخير والاطمئنان والازدهار للوطن عامة ، فإنما ترتقى الأمم بسواعد شبابها ، ويتطلب هذا من الداعى حكمة وصبر ولين ، وفراسة وفطانة بما يشبه الدبلوماسية فهو سفير داخل الوطن ، مرشد روحى ، ومعلم تربوى ، يربى الفضائل ويحث على المكارم ، ويقود إلى البناء والإعمار ، يجمع قلوب مجتمعة على الألفة والمودة والمحبة والإخاء ، ويضرب بالكلمة المؤثرة على أيدى السلبيين والرجعيين الذين لا يعيرون اهتماماً بمصالح الوطن وتنمية ثرواته وخيراته ، وزيادة تطور قدراته ويبددون طاقاته ولا يضعون الأمور فى نصابها ، ويتحقق هذا للداعى بإزالة الأحقاد والضغائن ، والتوعية أن كل فرد من أبناء الوطن يتأثر به المجتمع فساداً أو إصلاحاً ، بطالة أو عملاً ، إنتاجاً أو كسلاً ، فكل صفة من هذه الصفات تنعكس على الوطن سلباً أو إيجاباً .

وجاء فى الهدى النبوى الشريف ، من كمال إيمان المسلم أن يصلح بين الناس إذا تفاسدوا ، وأن يقارب بينهم إذا تباعدوا ، هذه هى سمات المجتمع الإسلامى .

واعلم أن الصالحين يصلحون أنفسهم ، أما المصلحون يصلحون الأمم ، ولا شك فى أن الداعى مصلح اجتماعى شامل ، وطبيب روحى كامل ، يعالج كافة أمراض مجتمعه من أفكار هدامة ، ومن سلبية رجعية ، ومن قصور فهم ناشئ عن جهل وتخلف وعدم وعى وإدراك للمسئولية الملقاة على عاتق أبناء الوطن جميعاً ، إذ يتأثر الوطن بفكرهم ، ويتطور ويزدهر بنمو دخلهم ، وسلامة أجسادهم منها سلامة عقولهم وزيادة إنتاجهم بما يرفع مستوى معاشهم .

ولا يغيب عنا أن الإسلام نظام تكافل اجتماعى شرعت فيه الزكاة لإذابة الفوارق بين الطبقات ، فالأغنياء يدفعون ما فرض الله تعالى فى أموالهم حقاً ، وإخراج الصدقات وفعل الخيرات بالإنفاق فى سبيل الله عز وجل ، وهذا أيضاً من مهام الداعى

الحث عليه والتذكير به ، فيساعد الفقراء والمساكين ، ويذهب البؤس عن اليتامى والمحتاجين ، فتتم المساواة بين أفراد الأمة ، فتقوى شوكتها وتتحد كلمتها ، ويعم الأمن والرخاء ، يندرج الجميع تحت حديث الرسول ﷺ: «**من بات آمناً فى سربه معافاً فى بدنه يملك قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحزافيرها**» ، فمهمة الداعى بكل هذه المعانى مهمة إنسانية ثقافية روحية اجتماعية .

٥ - مجال عمل كل من الداعى والمعلم هو الإنسان ، فكره ، ثقافته ، وجدانه ، سلوكه ، ميوله ، رغباته ، انفعالاته ، طموحاته ، التعرف على قدرات ذكاؤه من خلال حركاته وسكناته وانعكاساتها على تصرفاته ، فمن خلالها يمكنك أن تضع معالم شخصية من تدعو أو من تعلم ، وعلى ضوء ذلك التقييم تحدد الجرعة الإرشادية فى مجال الدعوة ، وكذا الجرعة التعليمية فى مجال التعليم ، هذا مناط مهمة الداعى والمعلم على السواء ، مع الفوارق أن الداعى يعلم كل الأعمار ويخاطب كل الثقافات وكل الطبقات ، أما المعلم فيعلم سن معينة فى مرحلة معينة بمادة علمية مقررة على العام الدراسى ، أما الداعى فمادته العلمية ثقافة إسلامية شاملة تبين الفروض والحقوق والحدود ، والواجب والجائز والمستحب والمكروه ، والسنن والنوافل ، وإيقاظ كل قلب غافل لاه ، وتذكيره بأن الأجل آت وأن الدنيا عرض زائل ، ومتاع زائف ، وأن تقوى الله عز وجل هى خير زاد يقتات به يوم التناد .

ودُعامة الداعية الأساسية فى ثقافته كتاب االله عز وجل - القرآن العظيم - دستور الأمة الذى بيَّن وفصَّل لها كل شىء ، وبه كشف الحبيب المصطفى ﷺ الغمة ، ونصح الأمة ، وبلغ الرسالة ، وتبارك المنزل على رسوله : ﴿ **مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ** ﴾ [(1)] .

والدعامة الثانية للداعى فى استدلاله وثقافته:هى السنة المطهرة التى تذخر بأعلى صنوف الحكمة إذ أنها نزلت مقترنة بالكتاب والعلم الربانى لرسول الإنسانية سيدنا محمد ﷺ فى قول الحق عز شأنه : ﴿ **وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ**

---

(١) سورة الأنعام : آية ٣٨ .

تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ (١) .

فمن أعلى مقامات التكريم للرسول الأعظم ﷺ وعلم الإنسانية وإمام الدعاة أن الحق تعالى أنزل عليه الكتاب مقترنا بالحكمة والعلم ، وهذه الخاصية لم تتوفر لرسول قبله ، فكل رسول أنزل الله تعالى عليه كتاباً فقط ، وقد يُعلم الحق سبحانه أصحاب التفضيل من الرسل ما لم يُعلم غيرهم كما هو الحال فى محمد ﷺ وعيسى - عليه السلام - فهم درجات فى التعلم بحسب درجة كل منهم فى التفضيل : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾ (٢) .

وكذلك الدعاة فإنهم ورثة الأنبياء ، والدور الذى يقومون به من تعليم كل الأعمار ، الكتاب والحكمة والنور الذى ورثوه من السلف ، أعنى النبوة ، وتختلف شفافية النور فى كل داع عنها فى الآخر ، وبقدر ما أودع الحق سبحانه كل قلب من صائر النور ، وعلى قدر درجة قربه من ربه ، تكون درجة تأثره فى قلوب من يدعو ، فالدعاة معلمون تربويون ومصلحون اجتماعيون ، من أجل ذلك يجب إعدادهم تربوياً وثقافياً وروحياً ، إعداداً فوق العادة بما يتناسب ومقتضيات علاج قضايا المجتمع الذى يبلغون فيه رسالات الله عز وجل ، ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله عز ذكره ، ولا يخافون فى الحق لومة لائم ، مع الأخذ فى الاعتبار أن دور الداعى يتميز بالاستمرارية وكثافة التأثير فى كل الأعمار منذ الطفولة ، وحتى الشيخوخة ، وهذا الدور يُعبر أصدق تعبير عن مفهوم التربية مدى الحياة .

٦ - يعيش المسلمون اليوم فى عالم حدث فيه تقدم هائل فى مختلف فروع العلوم والمعارف ، وقد آن الآوان أن نلحق بركب تطور العالم ، فنعد الداعى بأحدث ما وصلت إليه أساليب التربية الحديثة فى إعداد المعلم ، فيرتقى الداعى بتحويل دعوته من مجرد نصح وإرشاد إلى واقع يدخل حيز التنفيذ فى حياة المسلم العملية اليومية والعامة ، فيتبلور الفكر إلى عمل ، فإن الكلمة بتأثيرها وأسلوب قائلها تبنى أمة ،

---

(١) سورة النساء : آية ١١٣ .

(٢) سورة البقرة : آية ٢٥٣ .

وأيضاً برداءتها وأسلوب قائلها تهدم أمة .

والداعى شأنه شأن الأدباء والشعراء والفنانون ، وبحسب ذوق كل فى تخصصه إن كان الأسلوب هابطاً والكلمات وضيعة ، والمعالجة خليعة ، تأثر المجتمع وهبط وانحدرت أخلاقه وأقواله وأفعاله والعكس صحيحاً ، إن كان الأسلوب رفيع المستوى بديع الكلمات عالية القيمة ، مرهف الحس فى الذوق لأن الحس المرهف فى الذوق هو سر رقى الأمم وتطورها وازدهارها ، وانعدام الذوق الحسى فى الكلمات وغيرها حتى الطعام والشراب هو سر تخلفها وانطوائها ، ولأى عجب فى تخلف أمة انعدم فيها الذوق الحسى فانساقت تلملم هابط الكلمات وردئ الموضوعات فى أدبها وشعرها وفنها ، والدعاة مسؤلون أيضاً عن تصحيح هذه المهاترات ، كل فى مجتمعه ، إذ يعيش المسلمون اليوم فى عالم تهيمن عليه القيم المادية ، وعلى الدعاة إرشاد المسلمين وتوجيههم إلى التعامل مع عناصر حضارة هذا العالم ، دون أن تذوب شخصيتهم وتفقد خصائصها كأمة حمّلها الله تعالى أمانة أعظم رسالة سماوية .

٧ - من الأساليب التربوية التى يجب توافرها فى الداعى أن يجمع فى أسلوبه بين الترغيب والترهيب ، الخوف والرجاء ، بما يجدد الأمل فى النفوس ويحفز الهمم فى الإقدام على الله عز شأنه ، بجميل الطاعات وحسن العبادات ، فمن الأساليب الدينية الإرشادية الروحية ما يحيى النفوس ، ويشرح الصدور ، ويفرح القلوب ، فإن السعادة الإيمانية ما بعدها من سعادة ، لذا جاء فى قول الإمام على - كرم الله وجهه - سعادتى فى إيمانى ، وإيمانى فى قلبى ، وقلبى ليس لأحد سلطان عليه إلا الله عز وجل ، وجاء فى الحديث النبوى الشريف قوله ﷺ: «**إن القلوب لتصدأ وذكر الله عز وجل جلاؤها**» والداعى ذاكر مذكر ، ومهمة الدعاة عامة رسل وعلماء هى التذكير ، وإنما يستفيد من الذكر من وقر فى قلبه نور الخشية والخوف من الله : ﴿ **سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى** ﴾ [1] .

فمهمة الداعى جلاء القلوب عند صدائها مع العلم بأن الإيمان يزيد وينقص ، فإن

---

(١) سورة الأعلى : آية ١٠ .

كثرة الذنوب تسبب القسوة فى القلب ، وكثرة الذنوب تنشأ عن الغفلة والبعد عن الحق عز ثناؤه فى غيبة مرشد روحى ، يُعلم وينصح ويذكّر ويُبّين الحلال والحرام ، بما جاء فى كتاب الله عز وجل ، فيحل حلاله ويحرم حرامه تحت قاعدة: **﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾** (١) .

ومن الثابت أن الإيمان يزيد وينقص بالنص القرآنى الكريم قوله سبحانه: **﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾** (٢) .

والإيمان ثلاثة أنواع:

١ - إيمان مشاهدة ٢ - إيمان مراقبة . ٣ - إيمان يقين .

١ - أما إيمان المشاهدة: فكما هو الحال فى حارثة مولى رسول الله ﷺ يوم أن سأله: «**كيف أصبحت يا حارثة؟**» قال: أصبحت مؤمنا حقا يا رسول الله ، قال ﷺ: «**وما حقيقة إيمانك؟**» قال: عزفت نفسى عن الدنيا فاستوى عندى ذهبها بمدرها . قال ﷺ: «**ثم ماذا؟**» قال: فأظمأت نهارى ، وأسهرت ليلى ، قال ﷺ: «**ثم ماذا؟**» قال: وأصبحت وكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزاً . قال ﷺ: «**ثم ماذا؟**» قال: وأصبحت وكأنى أنظر إلى أهل الجنة فأرى ما هم فيه من النعيم المقيم ، وأنظر إلى أهل النار فأرى ما هم فيه من العذاب الأليم . فقال ﷺ: «**يا حارثة عرفت فالزم ، عرفت فالزم**» .

٢ - أما إيمان المراقبة: فكما هو الحال فى ابن الخليفة المأمون يوم أن عرف أن مرضه الذى هو فيه هو مرض موته ، فأراد أن يختار خليفة للمسلمين من بعده ، فجمع أبناءه الثلاثة وأعطى كل واحد منهم طائراً وسكيناً ، وقال: كل واحد منكم يذهب ويذبح طيره فى مكان لا يراه فيه أحد . . . فذهب أكبرهم واستتر فى أحد الأماكن ، وذبح

---

(١) سورة الزمر: آية ٢٣ .

(٢) سورة الأنفال: آية ٢ .

الطائر وعاد إلى أبيه وسلمه إياه مذبوحاً . قال الأب : هل رآك أحد؟ قال : لا .

وذهب الصغير وحذى حذو أخيه الأكبر . . . أما أوسطهم فذهب بطائره والسكين فى يده طوال اليوم ثم عاد إلى أبيه فى المساء والطير فى يده ، قال الأب : لماذا لم تذبحه مثل أخويك؟ قال أوسطهم : لأنى لم أجد مكاناً يا أبتاه لم يرنى فيه الله عز وجل ، فجميع الأماكن التى تستر عن عيون الخلق كثيرة ، أما عن عيون الخالق سبحانه فلم أجد مكاناً واحداً ، ففرح الأب واختاره خليفة من بعده للمسلمين ، وهذا يسمى إيمان مراقبة الله عز وجل .

٣ - وأما إيمان اليقين : فكما هو الحال فى رسول الله ﷺ مع أبى بكر الصديق وهما فى الغار يوم الهجرة قال أبو بكر : يا رسول الله والذى نفسى بيده لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا ، وهنا تزلزل إيمان أبى بكر وأحس بشىء من الخوف ، ولكن انظر فى ثبات يقين الإيمان فى رسول الإنسانية سيدنا محمد ﷺ يقول له : «**ما بالك يا أبا بكر فى اثنين الله ثالثهما ، لا تحزن إن الله معنا**» وقد سجل القرآن العظيم حال أبى بكر هذا وهو فى الغار وثبات يقين إيمان الرسول الأعظم ﷺ قول الحق عز شأنه : ﴿ **إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا** ﴾ (١) .

ومن الثابت أن الداعى يكون سبباً فى زيادة الإيمان ونقصانه ، فبالحكمة والموعظة الحسنة يكون الإقدام والإقبال على الله عز وجل ، وبالغلظة فى القول وعدم تمام الفائدة من الموعظة لأنها لن تبلغ بالحسنى يكون البعد ، والبعد ينقص الإيمان ويسبب الغفلة ، والقرب يزيد الإيمان ، والذكر بالتذكير هو العمد للمحبين ﴿ **الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا** ﴾ (٢) .

* * * * * * * * *

---

(١) سورة التوبة : آية ٤٠ .

(٢) سورة الأنفال : آية ٢ .

الثانى عشر : واجب الدعاة اليوم

يجب أن يكون الخطيب عارفاً بأساليب العرض وتناول القضايا المعاصرة والمشكلات التى تواجه الناس فى حياتهم اليومية والعملية ، ولا شك فى أن المسجد هو أحد الأعمدة الأساسية التى ترتكز عليها الدعوة الإسلامية فى ترسيخ وجودها وانتشارها بين أبناء عقيدة التوحيد ، ولذا يجب الاهتمام بالمسجد والعناية به ودعم رسالته من خلال الأكفاء من الدعاة ، الذين يملكون القدرة على توصيل المعلومات والخبرة فى حل المشكلات بقناعة وثقة واقتدار ، مع مراعاة أن شرط النجاح فى المهنة ، التوافق النفسى بين العامل والمهنة ، بمعنى الارتقاء بالدعوة من روتين الوظيفة إلى سمو الرسالة ، فهناك فرق بين من يقوم بوظيفة ، بهدف الكسب للتعايش وبين من يقوم بوظيفة يؤديها على أكمل وجه يطلب الأجر فيها من الله عز وجل ، والدعوة إلى الله تعالى هى أقدس عمل الأجر عليه من الله عز شأنه ، فتلك رسالة الأنبياء ، خصهم بها سبحانه وتعالى وتكفل لهم بالأجر والثواب عليها ، وانظر إلى طيب القول فى محكم التنزيل ما سجله القرآن العظيم من حال الأنبياء فى دعوتهم من نوح - عليه السلام - وحتى الرسول الأعظم الخاتم سيدنا محمد ﷺ ففى نوح قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ ﴾ (١) .

وفى هود - عليه السلام - قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ (٢) .

وفى صالح - عليه السلام - قول الحق عز ذكره: ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾(٣) .

المسلم والأسلوب الأمثل لنجاح الدعاة ، وفى نظرى ونظر كل مسلم أن الأسلوب الأمثل لنجاح الدعوة والدعاة ووضعها فى مسارها الصحيح هو أسلوب الرسول الأعظم

(١) سورة هود: آية ٢٩ .
(٢) سورة هود: آية ٥١ .
(٣) سورة الشعراء: آية ١٤٥ .

سيدنا محمد ﷺ فهو سيد الدعاة إلى الله تعالى وهو الأسوة والقدوة: ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا** ﴾[1] .

ومن هنا فإن واجب الدعاة فى كل زمان ومكان وعلى مدى العصور أن يتقيدوا بمنهج خير الأنام سيدنا محمد ﷺ **فإن السلامة فى ثلاث:**

١ - سلامة الجسد فى قلة الطعام . ٢ - وسلامة الروح فى قلة الآثام .

٣ - وسلامة الدين فى اتباع منهج سيد الأنام محمد - عليه الصلاة والسلام .

فواجب الدعاة أن يتقيدوا بالمسلك الذى سلكه ﷺ فى بزوغ الدعوة وحتى أتم الحق سبحانه وتعالى عليه نعمته ونصره نصراً عظيماً ، فقد كان صلوات الله وتسليمه عليه يدعو إلى الله تعالى على بصيرة بالحكمة والموعظة الحسنة ، والمجادلة بالحسنى ، حليماً يتسع صدره لكل صنوف الناس مؤمن وغير مؤمن ، يتجاوز عن سيئاتهم ، ويعفو عن زلاتهم ، تلك أدب النبوة الذى هو أدب الداعية الذى ما بعده أدب .

وإذا كانت السلامة فى ثلاثة كما أسلفنا فإن الخير فى ثلاثة أيضاً هى :

١ - من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين . ٢ - من يرد الله به خيراً يُزهده فى الدنيا .

٣ - من يُرد الله به خيراً يُبصره بعيوب نفسه .

فجاء التفقه فى الدين هو المرتبة الأولى من مراتب الخير الثلاث ، على عظمة فضله ، ورفعة مكانته ، وعلو شأنه ، فإن الفقهاء هم أفهم الخلق لدين الحق عز ثناؤه ، وأقدرهم على شرح منهجه ، وتفهيمه العامة والخاصة على السواء ، ولا ريب فى أنهم أعلام الأمة ، وحملة راية الرسل وأمناء التبليغ عن الله عز وجل فيما فقهوا وعلموا ، ومطالبون أن يبصروا الأمة بأمور الدين والدنيا معاً ، مسترشدين بنور الكتاب وفطانة النبوة التى تضمنتها السنة المطهرة ، أخذاً بقوله ﷺ: «**تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبدا كتاب الله وسنتى**» ، فالقرآن العظيم والسنة المطهرة هما الوقاية للأمة الإسلامية من الضلالة ما إن تمسكت بهما .

---

(١) سورة الأحزاب: آية ٢١ .

ثم جاء الزهد في المرتبة الثانية من مراتب الخير ، ولعله العون على التفقه والتبصر إذ توسطهما ولا يغيب عنا أن الزهد هو أول مراتب الكشف الحجابى لمن أراد أن تتكشف له حُجب الأستار ، ويرى بنور الأنوار كما هو الحال فى حارثة مولى رسول الله ﷺ حين سأله : «**كيف أصبحت يا حارثة؟**» . قال : أصبحت مؤمنا حقاً يا رسول الله . قال : ﷺ : «**وما حقيقة إيمانك؟**» قال : عزفت نفسى عن الدنيا فاستوى عندى ذهبها بمدرها : أى : كرهت نفسى الدنيا فاستوى عندى الذهب فيها بالتراب ، وهى أعلا مراتب الزهد إلى آخر ما جاء فى الحديث المشهور من رؤية عرش الله العظيم ، وكذا رؤية أهل الجنة وأهل النار ، إنها مرتبة الكشف الحجابى النورانى الإلهى العلوى : ﴿ **اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ [1] ، وإن المؤمن ليرى بنور الله .

ثم جاء التبصر مرتبة ثالثة فى مراتب الخير ، فمن أبصر عيوب نفسه عالج وقومّ ، ولا تقويم وعلاج إلا بفقه وزهد ، وهكذا ينال الزهاد والمتبصرون مراتب التفقه العالية فيستهدون ، ويهدون راشدين ومسترشدين بنور القرآن العظيم ، الذى تجاوزت رسالته الإنس إلى الجن حين سمعوه : ﴿ **وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ** ﴾ [2] إلخ .

ولا يغيب عنا أن من فقه فطن ، ومن فطن حاز الكياسة والحكمة التى هى معين النبوة الذى لا ينضب ، ومن حاز الحكمة قام فى الناس حكيما يعالج أمراض مجتمعه ، ويزيل آلامهم ، ويذهب أحزانهم ، ويشاركهم فى كل مناسباتهم هادياً حكيماً ومرشداً كريماً ، وناصحاً أميناً بما يحقق لهم الفوز والرشاد والخير فى الدنيا والآخرة ، ومعين حكمة النبوة جواد بما فيه الكفاية لإصلاح العباد فى الدنيا وفى الميعاد .

* * * * * * * *

---

(١) سورة النور : آية ٣٥ .

(٢) سورة الأحقاف : آية ٢٩ .

أثر القرآن فى الثقافة الإنسانية

يقسم (ابن خلدون) أصناف االعلوم الواقعة فى العمران ، والتى يخوض فيها البشر ويتداولونها تحصيلا وتعليما إلى قسمين :

قسم طبيعى :

ويشمل العلوم الحكمية الفلسفية التى يهتدى إليها الإنسان بتأمله ومداركه وإعمال فكره ، وبفقه بحثه فيها على موضوعاتها ومسائلها وأنحاء براهينها . .

القسم الثانى - قسم وضعى :

ويشمل العلوم النقلية التى يستند فى إدراكها ومعرفتها إلى الواضع الشرعى ، فمجال القول فيها غير مطلق ، بل إنه محصور فى إلحاق الفروع من مسائلها بالأصول ، والجزئيات بالكليات ، إلحاقاً قياسياً يتبين معه دوران العلة التى هى مناط الحكم فى الفرع والأصل والجزء والكل . . .

. . . وهذه العلوم النقلية كلها هى الشرعيات من الكتاب والسنة وما يتعلق بذلك من العلوم التى تهيئها للإفادة ثم يستتبع ذلك علوم اللسان العربى الذى نزل به القرآن الكريم وقد تعددت العلوم النقلية لدى السلف من المسلمين وكان القرآن هو مرجعها ومبعثها ، ومن تلك العلوم .

١ - علوم القراءات والتجويد ورسم المصحف : فقد اعتنى قوم بضبط لغاته ورسم كلماته ، وما روى من قراءاته ، وبيان مخارج حروفه وعدد كلماته وما تشابه من آياته ، أجزائه وأحزابه وأرباعه ، ومواضع سجداته . . . وغير ذلك من المباحث التى تناولها العلماء وتدارسها القراء .

٢ - علم قواعد اللغة نحوا أو صرفا : وقد دعا إليه الضرورة الملحة والحاجة إلى ضبط القراءة واجتناب اللحن الطارئ على الألسن بعد اتساع الفتوح وكثرة المخالطة بين العرب والعجم . . وقد أوسع النحاة مجال القول وأشعبوا البحث فى بيان المعرب منه

والمبنى ، والحروف العاملة وغير العاملة ، والأسماء وتوابعها وضروب الأفعال ، والجامد منها والمشتق ، واللازم منها والمتعدى كما أعربوا كلماته ، ونقبوا عن شواهدها واستعرضوا لها ما انتهى إليهم من كلام العرب حتى بلغ ما أحصروه من شواهد القرآن فيما ذكروا ثلاثمائة ألف بيت من الشعر . . وقد تبع ذلك وضع الشكل والإعجام لضبط القراءة .

ومن الحقائق الثابتة أن النحو العربى تمت قواعده ، وبلغ غاية نضجه فى مدى قرن من الزمان وذلك بفضل القرآن . خلافا لنحو اللغتين اليونانية واللاتينية ، فإن كلا منها لم يتم نحوها إلا بعد عدة قرون من الزمان من إنشاء دولتيهما ، ولا سيما دولة الرومان فإن نحو لغتها اللاتينية لم ينضج إلا بعد ستة قرون من قيامها .

٣ - التفسير: فقد عنى المفسرون ببيان ألفاظ القرآن وشرحها ، وتوضيح معانى جمله وتراكيبه ، ومقاصد آياته وذكر أسباب نزولها .

٤ - الحديث: فقد احتاجوا فى تفسير القرآن إلى تفهم الحديث لتوضيح ما يشكل عليهم . . فاشتغلوا بجمعه وتدوينه ، ثم شرحه وتأويله وبيان أقسامه وأصول روايته ، وغير ذلك من مباحثه .

٥ - الفقه وأصول الدين: إذ عنى فريق من العلماء بما فى القرآن الكريم من الأدلة العقلية والشواهد النظرية والقرائن الأصلية ، فاستنبطوا من ذلك قواعد علم أصول الدين والتوحيد كما تناول فريق منهم بمباحثهم من أنواع التخصيص ، والإخبار ، والنص ، والظاهر ، والمبهم ، والمجمل ، والمفصل ، والمحكم ، والمتشابه ، والأمر ، والنهى ، والنسخ ، إلى غير ذلك من أنواع الأقيسة والاستقراء ، وسموا هذا العلم علم أصول الفقه ، وتناول فريق آخر - بنظر صحيح ، وفكر سديد - ما فيه من الحلال والحرام ، وسائر الأحكام ، فأسسوا أصوله ، وفرعوا فروعه ، وبسطوا القول فى ذلك بسطا حسنا ، وسموا هذا العلم علم الفروع أو الفقه .

٦ - علوم اللغة والأدب: وقد دعاهم إلى وضع هذه العلوم ضبط معانى ألفاظ

القرآن وتفهم عباراته وأساليبه ، فجرهم ذلك إلى البحث فى أساليب العرب وأقوالهم وأشعارهم وحكمهم وأمثالهم فكان العلماء عند تفسيرهم للألفاظ وشرحهم لمعانى الآيات ، ولا سيما فى تفسير الرأى والاجتهاد الذى يراد به تأويل المعنى اللغوى وتوضيح مفاهيمه ومقاصده ، كانوا يعمدون إلى أشعار الجاهلين وآدابهم ، فيستنبطون منها شواهد التفسير والتأويل لما قد ورد فيها من ألفاظ القرآن الكريم وأساليبه ، فألفت كتب اللغة والآداب لخدمة القرآن . وتأمل فريق من الباحثين والأدباء معانى خطابه ، فيما يقتضى العموم ويقتضى الخصوص . . . إلى غير ذلك ، فاستنبطوا منه أحكام اللغة من حيث الحقيقة والمجاز . كما نظروا إلى ما فيه من جزالة اللفظ ، وبديع النظم ، وجمال السياق ، وحسن المبادئ والمقاطع والمخالص ، والتلوين فى الخطاب ، والإطناب والإيجاز والمساواة وما إلى ذلك فاستنبطوا منه علوم المعانى والبيان والبديع . وقد تبع هذا وضع علم العروض وعلم القوافى .

٧ - التاريخ والقصص : لأن الباحثين نظروا إلى ما فيه من قصص الأمم الخالية والقرون الماضية ، فنقلوا أخبارهم ، واستقصوا أنبائهم ، ودنوا آثارهم ووقائعهم للعبرة والموعظة **﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾** ، وقد تبع ذلك جمع السيرة النبوية الشريفة ، والبحث فى أسانيد مسائل الحديث والفقه والنحو ، والتفريق بين ضعيفها ومتينها ، والترجمة للعلماء والأدباء والفقهاء والمحدثين والنحاة ، فوضعوا كتب الطبقات فى كل علم وفن ، كطبقات : الشعراء ، والمفسرين والنحاة ، والفقهاء ، والحفاظ ، والنسابين ، وغيرهم . . . وكان ذلك من أهم أسس علم التاريخ .

٨ - علم الفرائض وقد استمد العلماء مما ورد فى آيات المواريث من ذكر الأنصبة وأصحابها ، كذكر نصف ما يورث أو ربعه أو سدسه أو ثمنه .

٩ - علم تقويم البلدان : وقد دعا إلى وضعه ما كابده العلماء فى أسفارهم إلى سائر الأمصار عند طلب الحديث من حملته ورواته ، وعند الرحلة إلى مكة لأداء

فريضة الحج ، ما تستلزمه بعض القواعد الفقهية كالخراج والجزية عند تطبيقها والمطالبة بها - من معرفة حالة البلاد وظروفها الجغرافية والعمرانية ، وكيفية فتحها أصلحا أم عنوة؟ . .

وقد جاء فى نصوص القرآن ما يحض على السعى لالتماس العبرة وطلب العلم ، بالسير فى الأرض والتنقل فى البلاد ، كقوله تعالى : ﴿ **فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ** ﴾ وقوله : ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** ﴾ .

١٠ - علم المواقيت : وهو العلم الذى تعرف به أزمنة الليالى والأيام وأحوالها وأجزائها ومقاديرها ، لإيقاع العبادات فى أوقاتها ، وقد توصلوا إليه عند النظر إلى ما فى القرآن الكريم من الآيات الدالة على الحكم الباهرة فى الليل والنهار ، والشمس والقمر والنجوم والبروج وغير ذلك .

وبعد فالقرآن الكريم بآياته البينات ، ومعانيه الرائعات ، كان سبب العلوم الأساسية ومرجعها ومصدرها الأول كلها ، فقد شغل العرب والمسلمون بدراسته وتفهمه ، فافتنوا بمذاهبه وفنونه ونزعوا منها إلى غير مذاهب الجاهلين وفنونهم ، فإذا بألوان من العلوم والمعارف والثقافات تتوالد منه وتنبعث عنه ، فتقتصر فى بادئ الأمر على العلوم النقلية : الشرعية واللسانية ثم يتطاول البناء وينمو الغراس نموا سريعاً متلاحقاً ، ثم يكون الاستقصاء والاستيعاب وتوالد الفروع من الأصول ، وتهيئة العقول للنهوض بالعلوم الفلسفية والنظرية والطبيعية والرياضية وما إلى ذلك من سائر العلوم العقلية .

ثم تتوالى بحوث العلماء ونظريات المفكرين على مدى الزمن ، فتأتى دلائل ناطقة على أن القرآن هو كتاب الدهر كله ، وكم للدهر من أدلة على هذه الحقيقة ، ما تزال قائمة ، وستبقى على تطاول حقبه وتتابع عصره شاهدة ناطة بذلك .

يقول الأستاذ (مصطفى صادق الرافعى) : ما من علم إلا وقد نظر أهله فى القرآن وأخذوا منه مادة علمهم أو مادة الحياة لهم ، فقد كانت سطوة الناس فى الأجيال الأولى من العامة وأشباه العامة شديدة على أهل العلوم النظرية ، إلا أن يجعلوا بينها وبين القرآن نسبا من التأويل والاستشهاد والنظر ، أو يبتغوا بها مقاصدا من مقاصده أو يرفعوا معنى من معانى التفقه فى الدين والنظر فى آثار الله ، إلى ما يشبه ذلك مما يكون فى نفسه صلة طبيعية بين أهل العقول والبحث وأهل القلوب والتسليم . ما يزال أثر ذلك ظاهرا فى فواتح الكتب العلمية لذلك العهد على اختلافها ، فما نستفتح من كتاب إلا أصبنا فى مقدمته غرضا من تلك الأغراض التى أشرنا إليها أو ما يصلح أن يكون غرضا منها وقد أشار القرآن الكريم إلى نشأة العلوم العقلية والنقية وإلى تمحيصها وبلوغها غاياتها مع التنبؤ إلى ما ينالها من تجدد ، وما يلحقها من تنوع وتطور على مدى الأجيال فى قوله تعالى : ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** ﴾ وكل علم إنما يقوم فى خلقه وإظهاره على أجلية النظر وإعمال الفكر فيما احتوته الآفاق فى ملكوت السموات والأرض ما بدا من ظاهرتها ، وما خفى من أسرارها وعلى تدبر النفوس ومعرفة أحوالها . فالوجود الشامل ، والتدبر المطلق ، والنفوس الصافية والعقول الواعية الفاحصة ، كل أولئك هى قوام العلوم ومناطقها وهى المنزع لكل حضارة والباعث على ارتقائها ، وهى الدعائم والأسس التى تقوم عليها كل معرفة وكل فن .

* * * * * * * * *

خطبة الرسول ﷺ فى المدينة

الحمد لله أحمده وأستعينه وأستغفره وأستهديه وأومن به ولا أكفره وأعادى من يكفره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ، أرسله بالهدى والنور والموعظة على فترة من الرسل وقلة من العلم وضلالة من الناس وانقطاع من الزمان ودنو من الساعة وقرب من الأجل . من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى وفرط وضل ضلالا بعيدا .

أوصيكم بتقوى الله . فاحذروا ما حذركم الله من نفسه ، ولا أفضل من ذلك نصيحة ، ولا أفضل من ذلك ذكرا وإن تقوى الله ، لمن عمل به على وجل ومخافة من ربه ، عون صدق على ما تبغون من أمر الآخرة . ومن يصلح الذى بينه وبين الله من أمره فى السر والعلانية لا ينوى بذلك إلا وجه الله يكن له ذكر فى عاجل أمره وذخرا فيما بعد الموت حين يفتقر المرء إلى ما قدم ، وما كان من سوى ذلك يود لو أن بينه وبينه أمدا بعيدا . ويحذركم الله نفسه ، والله رؤوف بالعباد .

فاتقوا الله فى عاجل أمركم وآجله ، فى السر والعلانية ﴿ **وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا** ﴾ . ﴿ **وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا** ﴾ .

وإن تقوى الله يوقى مقته ويوقى عقوبته ويوقى سخطه وإن تقوى الله يبيض الوجوه ، ويرضى الرب ، ويرفع الدرجة ، خذوا بحظكم ولا تفرطوا فى جنب الله . قد علمكم الله كتابه ، ونهج لكم سبيله ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين فأحسنوا كما أحسن إليكم ، وعادوا أعداءه ، ﴿ **وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ** ﴾ وسماكم المسلمين ﴿ **لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ** ﴾ ولا قوة إلا بالله . فأكثروا ذكر الله ، واعملوا لما بعد اليوم . فإن من يصلح ما بينه وبين الله يكفه الله ما بينه وبين الناس ، ذلك بأن الله قضى على الناس ولا يقضون عليه ، ويملك من الناس ولا يملكون منه ، الله أكبر ، ولا قوة إلا بالله العظيم .

* * * * * * * *

ملامح الخطبة ومعالمها

الخطبة منهج رائع وموعظة حسنة من الرسول الكريم ﷺ وقد استهلها بتأكيد وحدانية الله ، وأنه أتم نعمته على الناس بإرساله إليهم كى يخرجهم مما هم فيه من غواية وضلالة ويدخلوا فى رعايته الإلهية ، فلا يعملوا عملا بدونه ، ويجب عليهم أن يجتمعوا على تقواه . ويستشعروا الله فى السر والعلانية ، فإنه يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، ويقدموا طاعته حتى يدخلوا فى جناته يوم القيامة ﴿ **يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ** ﴾ إنه يوم ما بعده مستعتب ، فإما الجنة وشفيعها العمل الصالح ، وإما النار وبئس القرار .

وأخذ الرسول يدفعهم دفعاً إلى الجهاد فى سبيل الله ونشر دعوة الحق والخير ، فقد اجتباهم ليضطلعوا بأمانة الرسالة المحمدية ، ولينشروها فى أطراف الأرض .

وقد اعتمد الرسول الكريم على القرآن الخالد وآياته وتلمح أنه استمد منه موعظته ، وأضاء بها خطبته المباركة . .

وهذه الآيات سطعت فى خطبته بصورة جلية واضحة . وبعد الاستشهاد بالآيات أراد الرسول أن يقيم المجتمع الإسلامى الخالص على دعائم الدين الحنيف ، وأخذ الرسول يسن التشريعات التى تحافظ على كيان هذا المجتمع ليعيش أفراده فى تعاون وترابط فى سبيل الله وهذا يؤدى إلى الجنة ونعيمها التى أعدها الله للمتقين .

* * * * * * * * *

من خطبة أبى بكر الصديق رضى الله عنه عند البيعة

قال: بعد أن حمد الله وأثنى عليه . "أيها الناس: إنى قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن رأيتمونى على حق فأعينونى ، وإن رأيتمونى على باطل فسددونى . أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم . ألا إن أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ الحق له وأضعفكم عندى القوى حتى آخذ الحق منه" . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

تحليل الخطبة:

يظهر فى هذه الخطبة معالم الدستور الذى التزم به الصديق رضى الله عنه فى أول مواجهة بينه وبين المسلمين الذين نادوا به خليفة بعد الرسول الكريم .

وتأمل قول الصديق (إنى وليت عليكم ولست بخيركم) وكذا قوله:(وإن رأيتمونى على حق فأعينونى وإن رأيتمونى على باطل فسددونى) . ومن هنا تظهر نفسية الحاكم المسلم الحق فهو يرى أن الحكم لله وهو خليفة الله فى أرضه ، وعليه أن يحكم بما أنزل ويتبع حدوده ، ولا تأخذه فى الله لومة لائم ، كما عليه أن يدرك أنه مسئول عن رعيته ، وأنه ليس مفضلا عليهم فى شيء أبداً وعلى الرعية أن تأخذه إذا حاد عن الطريق المستقيم .

وأن الحكم إذا كان مستمدا من تعاليم الله وسنة رسوله أصبح صالحاً للأمة الإسلامية ، وخاصة إذا كان الإمام على صلة متينة بالله عز وجل ولهذا قال أبو بكر: (أطيعونى ما أطعت الله فيكم فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم) .

ومع صغر الخطبة وإيجازها إلا أنها احتوت على أفكار كثيرة ، وقد رسمت بكلماتها القليلة سياسة الدولة الإسلامية فى أول عهد أبى بكر الصديق وظهرت فيها بلاغة الصديق واضحة فجاءت سهلة لا تكلف فيها ولا غرابة فى ألفاظها بحيث تؤدى فى النهاية إلى انسجامها مع الكلمات والجمل .

وقد بدأت الخطبة بحمد الله والثناء عليه ، وانتهت بالاستغفار للخطيب وسامعيه وهذا نهج سارت عليه الخطابة الإسلامية منذ بدء الدعوة .

وإذا كان الحكام فى الدول المتقدمة يلقون بخطبهم ، وبياناتهم ويعرضون منهج حكمهم على الشعب فقد سبقهم إلى ذلك الصديق ، ولم يكتف بذلك بل طالب الشعب الإسلامى أن يعارضه ويقومه إن حاد عن الطريق .

وقد ذهب الصديق أبعد من ذلك وذلك حينما طالبهم بأن يكونوا عوناً له فى حكمه ، ورقباء على تصرفه ، وجعل طاعتهم له رهنا بطاعته لله ، فإن لم يحكم بما أنزل الله كانوا فى حل من عصيانه ، كما أوضح لهم أن الضعيف الذى اغتصب منه حقه هو عنده أقوى الأقوياء حتى يرد له الحق المغتصب ، وأن القوى المتباهى بقوته هو عنده أضعف الناس حتى يأخذ منه الحق الذى سلبه من غيره وهذا إن دل على شىءفإنما يدل على قوة الصديق فى الله وأنه يعتمد فى حكمه على أسس راسخة من تعاليم الله وسنة رسوله الذى جعل الأمر شورى . وسوى بين الناس لا فضل لإنسان على آخر إلا بالتقوى والعمل الصالح .

وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿ **وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ** ﴾ ، كما قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾ .

ومن كل ما تقدم يظهر بوضوح معالم الخطبة الإسلامية فى أنها تحتوى إلى جانب الوعظ والتحذير والتقرب إلى الله بالعمل الصالح خطة الخليفة فى حكمه وما سيسير عليه ليكون بيانا للناس .

* * * * * * * * *

الإسلام رسالة عالمية يخاطب الناس جميعاً على أساس العدالة والمساواة

العدل :

العدل لغة : ضد الظلم ومادة - عدل - من الألفاظ المشتركة ويقال : عدل فى الأمر عدلاً وعدالة : استقام ، وعدل فى حكمه : حكم بالعدل .

والعدل فى حقيقة أمره ذو أبعاد كثيرة ، تلمس فى القول ، والعمل ، والمال ، والرغبة ، والحكم ، والعبادة ، ومعاملة الزوجة ، والأولاد ، والخدم ، والناس بوجه عام ، والمجتمع .

وذلك أن الشريعة الإسلامية مبناها وأساسها عدل كلها ، ورحمة كلها ، وحكمة جميعها ، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور ، وعن الرحمة إلى ضدها ، وعن المصلحة إلى المفسدة ، وعن الحكمة إلى الغية فليست من شريعة الإسلام التى هى عدل الله بين عباده ، ورحمته بين خلقه ، وفى القرآن الكريم وسنة رسول الله - ﷺ - وسيرته وحياة أصحابه - رضوان الله عليهم - نماذج تقنن مثلاً عليا حملها العدل ، وعملت به .

فالعدل من حيث جوهره ليس قاعدة من قواعد الإسلام فحسب ، وإنما هو مثل أعلى من حقائق وقيم الإسلام الكبرى ، التى حض على تحقيقها ، وإشاعتها بين الناس فى ثمان وعشرين آية من القرآن الكريم .

منها قول الله فى سورة المائدة : ﴿ **وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى** ﴾ [1] .

وفى سورة الأنعام : ﴿ **وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى** ﴾ [2] .

---

(١) سورة المائدة ، الآية : ٨ .

(٢) سورة الأنعام ، الآية : ١٥٢ .

وفى سورة النساء : ﴿ **فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ** ﴾ [(١)] .

وسنجد مثلاً كثيرة من نماذج العدل التى حث عليها القرآن . فالعدل فى عرف الإسلام فريضة واجبة ، فرضها الله على جميع الناس دون استثناء .

كما غرس الإسلام العدالة ، وفرضها على المسلمين كانت المساواة من غرسه ، وقيمه ، ومبادئه .

فالناس فى شرع الإسلام متساوون فى تكوينهم ، وأصل خلقهم ، فلم يخلق الله شعباً أو جماعة من طين أشرف من الطين الذى خلق منه شعباً آخر ، أو جماعة أخرى .

ولقد أوضح هذا رسول الله - ﷺ - فى قوله : «**يا أيها الناس : إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، ليس لعربى فضل على عجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا أحمر على أبيض ، ولا أبيض على أحمر فضل إلا بالتقوى** . . . . » .

ثم تلا قول الله - سبحانه - فى سورة الحجرات : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾ [(٢)] .

وقد امتدت هذه المساواة إلى مواطن عديدة ، أحاطها الإسلام بسياج من القوانين ، والقواعد ، حيث التزم فيها بمبدأ المساواة الكاملة بين الناس .

ففى مواطن الأصول والتفاخر بالنسب والحسب يقف الإسلام مشرعاً وواضعاً لأصول جديدة فى المساواة المطلقة ؛ فيقرر الرسول - ﷺ - : «**الناس لآدم وآدم من تراب**» ، وفى قول لعمر بن الخطاب - رضى الله عنه - : "من قصر به عمله لم يسرع به نسبه" .

---

(١) سورة النساء ، الآية : ١٣٥ .
(٢) سورة الحجرات ، الآية : ١٣ .

وفى موطن اللون ساوى الرسول - ﷺ - بين الناس جميعاً دون نظر للألوان ، واستقر هذا بين المسلمين .

وفى عصر المساواة القانونية المعاصرة نجد أن اللون ما زال سببا للتمايز بين الناس لدى شعوب بلغت من الرقى المادى والعلمى شأواً بعيداً ، لكن روح الإسلام وقوانينه قد أذابت العنصرية والتعالى بسبب اللون والجنس بين المسلمين ، فاستقرت المساواة بجميع مستوياتها وصورها وصارت حقيقة واقعة يلمسها الناس جميعاً .

ذلك أن الإسلام هو صاحب الشريعة الوحيدة التى استطاعت أن تقر المساواة مبدأ نافذاً بين الناس جميعاً ، وأحلت الانسجام بين القيمة والواقع ، وذلك يظهر فى موطن القيادة ، حيث يقف المسلمون صفاً أو صفوفاً متراصة متناسقة ، متلاصقين بالمناكب ، متجهين إلى قبلة واحدة وخلف إمام واحد ، لا فرق بين غنى وفقير ، ولا أبيض ولا أسود .

فالمساواة التى شرعها الإسلام فى تطبيقها وتحقيقها هى : المساواة بين جميع أفرادها ، ورعاياها فى الحقوق والواجبات : مدنية ، أو سياسية ، وأمام القانون ، وأمام القضاء ، فليس هناك شئ يمايز بين الناس .

فالعدالة والمساواة تقررت فى الإسلام للإنسان ، غير مسبوق فى ذلك من دين آخر ولا قانون .

* * * * * * * * *

الإسلام دين الإنسانية

يتساءل بعض الناس عن أسباب ظاهرة اعتناق كبار المفكرين فى الغرب الإسلام ديناً ، بالرغم من طغيان الحياة المادية وتطورها إلى الرفاهية التى تغرق الناس فى الملذات والشهوات ، وتصرفهم عن التدين فضلاً عن المقارنة بين الأديان ، ولكن أولئك الذين ارتفعت بهم علوم العصر وثقافته ، ووفرت لهم من زينة الحياة ونعمها ما لم يتوفر للأجيال التى سبقت .

كان منهم من فكر وقدر أن الإنسان كما هو فى حاجة إلى غذاء بدن لينمو جسمه ويستقيم عوده ، فى حاجة كذلك إلى ما ينمى روحه ، ويرقى بها إلى مدارج الأمن والأمان ، وفى حاجة إلى أن يعيش فى مجتمع ارتقى سلوكه ، واستنار فكره ، وارتفع فوق السوءات والسيئات ، فسادته الرحمة ، لأنه صار مجتمعاً ، إنسانياً ، ارتقت به إنسانيته عن طباع المجتمع الحيوانى الذى تسوده القوة ، والقسوة ، والغدر والخيانة .

درس أولئك الإسلام فى مصادره دراسة المنقب عن كنز يبتغيه ، أو عن هدف يتغياه ، فوجدوا القرآن يقول عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه - رضى الله عنهم - :

﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ (١) .

فعرفوا من هذا أن من أهداف الإسلام التراحم والتآخى ، والتعاون ، أداء لحق الله فى العبادة ، واعترافاً بحق الناس فى الحياة فى أمن وسلام ، ثم وجدوا الله يصف رسالة الإسلام بالرحمة فيقول فى القرآن : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (٢) .

فالإسلام رحمة للناس جميعاً ، تصلح به المجتمعات ، فيتعاون الرئيس والمرؤوس ، والجار مع جاره ، والبائع والمشترى ، والمعلم والطالب ، والزارع

---

(١) سورة الفتح ، الآية : ٢٩ .
(٢) سورة الأنبياء ، الآية : ١٠٧ .

والصانع ، وعندما تحل الرحمة بين الأمم يسودها السلام .

وجد أولئك أن الإسلام مكن الإنسان فى الوجود ، فأقام حياته على ضوابط القوة والاستقلالية والذاتية حتى يعمل ، وينتج ، ويعمر هذه الحياة بآماله وأعماله وأجياله ، ومن هنا وإلى هذه الغاية ألغى الإسلام الوساطة بين الإنسان وربه .

فيقول الله فى القرآن لرسوله - ﷺ - : ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ** ﴾ (١) .

فليس بين المسلم وربه وساطة ولا حجاب ، وهذا هو المسلم فى صلواته يقرأ سورة الفاتحة ، وفيها يتوجه مباشرة إلى ربه كما علمه فيقول فى هذه السورة : ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ** ﴾ (٢) .

هاهو الإسلام قد رفع كل الحجب ، فما على المسلم إلا أن يتوضأ ويدخل فى الصلاة بين يدى ربه ، وفيها وبها يصفو قلبه ، وتهدأ نفسه ، ويبعد عن القلق والتوتر العصبى ، لأنه استسلم وسلم نفسه إلى ربه ، ثم هاهو الإسلام يخاطب العقل الذى فضل الله به الإنسان على غيره من المخلوقات ، وبه كان سيداً فى هذه الحياة ، فكان على هذا العقل أن يحترم إنسانية الإنسان ، دون نظر إلى لون ، أو جنس ، أو غنى ، أو فقير ، وفى هذا قال الله فى القرآن : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء** ﴾ (٣) .

ونادى رسول الله - ﷺ - فى المسلمين يوم حجة الوداع : « **الناس سواسية كأسنان المشط ، لا فضل لعربى على عجمى ، ولا أبيض على أسود إلا بالتقوى** » ، ذلك حكم الإسلام ونداؤه منذ أكثر من أربعة عشر قرناً ، بينما لا يزال الناس فى الأمم التى

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٨٥ .
(٢) سورة الفاتحة ، الآيات : ٥ - ٧ .
(٣) سورة النساء ، الآية : ١ .

غمرتها المادة ، وجرفتها الرفاهية ، يفرقون بين بنى الإنسان ويقسمون المجتمع الإنسانى إلى فئات وطبقات يوقدون العداوة فيما بينها ، ويثيرون هؤلاء على أولئك فتشتعل الحروب وتسفك الدماء التى صانها الله .

نعم :

من أجل العقيدة الصحيحة للإسلام ، ومن أجل تشريعه الذى حكم فأصلح وقام فى ظله المجتمع الإسلامى الإنسانى يظله الأمن والإخاء والسلام والتعاون والمساواة ، وأخلاق الإسلام التى تصوغ المسلم الفرد ، كما تصوغ الأمة الإسلامية نموذجاً فريداً يقتدى به ، من أجل الإسلام كله عقيدة وشريعة وأخلاقاً كان دخول الناس فى دين الله أفواجاً من كل صوب وحدب ، ومن الغرب ومن الشرق ، من أرباب الفكر وجهابذة العلوم ، فالإسلام دين الإنسانية ، وما على المسلمين إلا أن يتمسكوا بهذا الدين ، فقد ارتفعت مآذن المساجد فى أرض الله على اتساع مداها ، ذلك الفضل من الله القائل : ﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ ﴾ [1] .

* * * * * * * * *

(١) سورة الأنعام ، الآية : ١٢٥ .

حرص الإسلام على طهر الغاية وشرف الوسيلة

العمل الصالح الذى تردد ذكره فى القرآن الكريم قرينا للإيمان ، وتالياً له إشادة بهما ، ودعوة إلى اعتناقهما ، وهو عمل للدين ، أو للدنيا ، صلح به أمر القائم به ، وامتد أثره إلى مجتمعه ، فلا يذهبن أحد إلى قصره على العبادات فحسب .

يرشدنا إلى هذا الحديث ، الذى رواه الطبرانى فى معاجمه عن القيس بن عجرة - رضى الله عنه - قال : مر على رسول الله - ﷺ - رجل فرأى أصحاب رسول الله - ﷺ - من جلد ونشاطه ، فقالوا يا رسول الله : لو كان هذا فى سبيل الله ، فقال رسول الله - ﷺ - : «**إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً فهو فى سبيل الله ، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو فى سبيل الله ، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو فى سبيل الله ، وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة فهو فى سبيل الشيطان**» .

ولا ينبغى أن يأنف المسلم عن أى عمل مشروع يرتزق منه ، ذلك أدب الإسلام الذى أرشد إليه الرسول - ﷺ - فى حديث أبى هريرة الذى رواه أحمد فى مسنده : «**والذى نفسى بيده لأن يأخذ أحدكم حبله فيذهب به إلى الجبل فيحتطب ثم يأتى به فيحمله على ظهره ، فيأكل خير له من أن يسأل الناس ، ولأن يأخذ تراباً فيجعله فى فيه خير له من أن يجعل فى فيه ما حرم الله عليه**» .

هذا هو العمل ، والحث عليه فى الإسلام ، شرف أى شرف ، وقوة للفرد وللأمة ، العمل المشروع الذى يخدم الاقتصاد ويثرى الأمة والدولة ، وليس من الأعمال المشروعة احتراف لعب القمار ولا التجارة فى الخمر والمخدرات ، وكافة المسكرات ، والمحرمات ، ولا صناعتها ولا تيسير الاتجار فيها .

ولنعلم أن من محاسن الإسلام - عقيدة وشريعة - أن الله - سبحانه - ما حرم قولاً أو فعلاً إلا عوض خيراً منه ، فقد حرم الربا وأحل البيع والشراء تجارة رابحة ، وحرم القمار ، وأبدل به المسابقة النافعة فى الدين والدنيا ، بالخيل والإبل والسهام ، وحرم

الكذب وشهادة الزور ، واستبدل بها الصدق الذى يهدى إلى البر ، والبر يهدى إلى الجنة ، فالعمل وسيلة لجمع المال بغية انفاقه ، أو استثماره فيما أحل الله .

ولابد أن تكون هذه الوسيلة - المال وجمعه - مشروعة ، ومن ثم فإن من استحل الربا ، باسم الفائدة ، أو العائد كان كسبه هذا حراماً ، ومن استحل الرقص باسم الفن كان كسبه حراماً ، ومن استحل الخمر باسم المشروبات الروحية ، أو بأى اسم مما أطلق عليها فى عصرنا هذا لم يخرجه هذا عن أنه قد ارتكب منكراً من القول وزوراً ، وأى كبيرة من الكبائر فهذا حديث أبى مالك الأشعرى الذى رواه ابن ماجه وابن حبان فى صحيحه :

«يشرب ناس من أمتى الخمر يسمونها بغير اسمها يُضرب على رؤوسهم بالمعازف والقينات يخسف الله بهم الأرض ويجعل منهم القردة والخنازير» .

ولا يرضى الله ولا يرضى رسوله - ﷺ - أبداً أن يتخذ الحرام وسيلة إلى غاية محمودة ، لأن الإسلام يحرص على شرف الغاية وطهر الوسيلة معا ، ولا يقر الإسلام أبداً ذلك المبدأ الذى ساد فى هذا العصر : (أن الغاية تبرر الوسيلة) ، وهذا غير صحيح فى الإسلام فإن الله طيب لا يقبل إلا طيباً يدل على هذا ما جاء فى السنة كما فى البخارى ومسلم وغيرهما عن جابر أنه سمع رسول الله - ﷺ - عام الفتح يقول وهو بمكة : **«إن الله ورسوله حرم بيع الخمر ، والميتة ، والخنزير ، والأصنام»** فقيل يا رسول الله : أرأيت شحوم الميتة فأنها تطلى بها السفن ، ويدهن بها الجلود ، ويستصبح بها الناس؟ .

فقال : **«لا ، هو حرام ، ثم قال : قاتل الله اليهود حرمت عليهم الشحوم ، فجملوه فباعوه ، وأكلوا ثمنه»** .

ومن هنا كانت وصايا الإسلام للمسلمين أن يقبلوا علة العمل المشروع ، يكسبون به أرزاقهم ، ويستثمرون فيه أموالهم وخبرتهم ، فطلب الحلال فريضة على كل مسلم ، لأن الوسيلة المثلى والمقبولة من الله - سبحانه - إلى الطاعات ، فالحاج إذا لم

تكن نفقته من حلال لم يقبل الله حجته ، والزكاة إذا لم تكن من مال حلال لم يقبلها الله - سبحانه - ولا بركة فى المال الحرام مهما كثر .

وقد قيل : ليتها لم تزن ولم تتصدق ، فهؤلاء الذين يصنعون الخمور ويتاجرون فيها وإخوانهم الذين يجلبون المخدرات ، ويروجونها ، ويتعاملون بها بيعاً وشراءً ، وتعاطياً ، كل أولئك كسبهم حرام ، لا يقبل الله لهم صوماً ولا زكاة ولا حجاً ، وكل عمل مردود عليهم ذلك لأنهم يسعون فى الأرض فساداً بعملهم هذا ، حتى يسلبوا الناس أموالهم وصحتهم .

إن على المسلمين أن يبتغوا الكسب الحلال لأنه الوسيلة إلى الطاعة لله ورسوله وصدق الله : ﴿ **إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ** ﴾ [(١)] .

* * * * * * * * *

---

(١) سورة المائدة ، الآية : ٢٧ .

العبادة والعمل

قال الله - سبحانه وتعالى - : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [١] .

بهذا القول الفصل من الله - سبحانه - كان اقتران العبادة والعمل ، فليس لأحد من المسلمين أن يجافى أيهما ، أو أن يحيف على واحد منهما ، فلكل مجاله وأوقاته ، وما طلب الله من أحد الانقطاع للعبادة ، والتخلى عن العمل الذى يكسب منه قوته ، وتزدهر به حياته ، بل حياة الناس جميعاً ، من بيع وشراء ، وأخذ وعطاء ، وحرث وصناعة وبناء ، فالإسلام دين سعى وكسب ، يجمع بين مصالح الدنيا والآخرة ، يمتدح المؤمن القوى ، والغنى النقى ويزكى المؤمن المحترف ، ويكره الخالى من العمل ، ويقول - ﷺ - : «**لأن تذر ورثتك أغنياء خير وأحب إلى الله من أن تتركهم فقراء**» [٢] ، ولقد استأذن بعض الصحابة رسول الله - ﷺ - فى أن يبيعوا عقارهم وأموالهم ، ويشتروا بها سلاحاً وخيلاً يجاهدون عليها فى سبيل الله ، فنهاهم عن ذلك ، وقال : «**أمسكوا عليكم أموالكم ولا تفسدوها**» [٣] ، واستأذنه أحدهم فى أن يتصدق بكل ماله فنهاه عن ذلك ، واستأذن آخر فى اعتزال الدنيا ، والتفرغ للعبادة فنهاه ، وقال لعبد الله بن عمرو بن العاص : «**ألم أخبر بأنك تقوم الليل وتصوم النهار؟**» قلت : بلى يا رسول الله ، قال : «**فلا تفعل فإن لنفسك عليك حقا ، ولزوجك عليك حقا ، فأعط كل ذى حق حقه**»[٤] .

فإذا جاءت بعض النصوص الشرعية داعية إلى التفرغ إلى العبادة فإن هدفها العبادة التى فرضها الله بالإخلاص فى أدائها ، والمحافظة عليها ، فمتى دخل وقت الصلاة المفروضة كان حتماً أن يبادر إلى أدائها بشروطها ، وأركانها وسننها ، وأن تترك - من أجلها - كل ما يشغلك عنها .

وإذا حضرت فريضة الزكاة ، وجبت المبادرة إلى إخراجها إلى مستحقيها ، وبذلك ترخص الدنيا عند حضور واجب فرضه الله ، فإنه ما استجلبت نعم الله ، وما

---

(١) سورة الجمعة ، الآية : ١٠ .

(٢) رواه الجماعة ، نيل الأوطار جـ ٦ صـ : ٣٧ .

(٣) رواه من حديث الإمام أحمد ، ومسلم وابن حبان ، جامع الأحاديث للسيوطى .

(٤) حديث متفق عليه فى رياض الصالحين للنووى .

استدفعت نقمه ، بمثل المحافظة على طاعته ، والإخلاص فى أداء فرائضه .

فالعمل الصالح هو: همة التقى ، ولا يضره مع ذلك أن تنشغل جوارحه بالعمل والكسب ، لأن الدنيا متاع يتمتع بها المؤمن إلى ما هو خير منها ، يزرع فيها ليحصد الثمرة رضواناً من الله ، ورحمة وهديا ، يعمل فى دنياه عملاً لا يضر بآخرته ، ويعمل لآخرته بما لا يضر بدنياه .

ومن ثم كان على المؤمن أن يجد فى العمل للدنيا وللآخرة ، بل إن العمل الذى ظاهره للدنيا ، مع النية الطيبة ، هو عمل يثاب عليه من الله ، فما زرع زارع زرعاً فأكل منه إنسان أو حيوان إلا كان له به صدقة ، وإن سعى الرجل ليعف نفسه عن المسألة صدقة ، وإن سعيه على رزق زوجه وأولاده فى سبيل الله نوع من أنواع الجهاد ، كما جاء فى أحاديث رسول الله ﷺ .

فاعمل أيها المسلم وأد حق الله ، إنك إن فعلت تكن قد جمعت الحسنيين ، ولا تلتفت إلى أولئك الذين يفسدون حياتهم بالإعراض عن ذكر الله وعبادته ، كفرا بنعمته ، ونكراناً لفضله ، أو يضيعون دنياهم بالابتعاد عن العمل المباح ، والكسب الحلال ، ويقعدون عن طلب الرزق ، وقد علموا أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة ، وأن الله الذى دعانا إلى طاعته بعبادته بما افترضه علينا من فرائض ، وما حده لنا من حدود ، هو الذى أمرنا بعمارة هذه الحياة ، والسعى فى الأرض ، والعمل لكسب الرزق ، وأوجب أن نوائم بين العبادة والعمل ، وأن نجعل العمل ذاته عبادة بالإخلاص والإحسان ، فليؤد الذى أؤتمن أمانته وليتق الله ربه .

فالتاجر عليه أن يكون أميناً صدوقاً ، لا يغش فى كيل ، أو وزن ، أو سلعة ، أو يغالى فى الربح فيشق على الناس ، والصانع عليه أن يجود فى صنعته ، فإن الله يحب إذا عمل العامل عملاً أن يتقنه ، وبذلك يؤدى كل دوره ، فتزدهر حياة الناس ، وتثمر عيشة راضية مرضية ، يسودها العدل والرحمة والمودة ﴿ **أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ** ﴾ [1] .

****

(١) سورة الزمر ، الآية : ١٨ .

دعائم الوحدة بين المسلمين

أرأيت إلى أمة اصطفاها الله وجعلها شاهدة على غيرها من الأمم ، ذلك قوله تعالى في سورة البقرة: **﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾** (١) .

أرأيت إلى أمة قام دينها الإسلام على قواعد واحدة ، لا تختلف في مشرق عنها في مغرب ، ولا شمال عن جنوب ، أركان ثابتة جامعة مجمعة تلك هي التي أشار إليها الحديث: «**بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا**» متفق عليه .

مفتاح الوحدة ، الإيمان بالله ورسوله ، تتردد على شفاههم ومن شغاف قلوبهم كلمة التوحيد ، ينخلع بها ولها وسواس الشيطان الخناس من الجنة والناس ، فتصفوا الأفئدة وتنتهي النفوس عن الغي والإثم ، ومتى انتهت إلى ذلك كانت الحكمة ملئ القلب وغذاء الروح ، ها هي النفوس قد أذنت بربها بالصفاء له ، والإيمان به فقامت تطهر الجسد والثوب: **﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾** (٢) وتسبغ الوضوء كما أمر الله مستبشرة بالوقوف بين يدي الله استجابة لندائه:

﴿ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ ﴾ (٣) .

ها هي خاشعة ، راكعة ، ساجدة لربها ذاكرة ، ومن ذنوبها مستغفرة ، ولآيات ربها في قرآنه تالية ، حتى إذا فرغت من صلاتها كانت بصلاتها بالناس براً ، وعطاء ، وسخاء ، مزكية ، متصدقة ، راغبة إلى الله عن المال ، والولد ، مستذكرة أنها فتنة في الحياة ، مبخلة مجبنة ، تعطي المال على حبه مسكيناً ويتيماً ، وأسيراً: **﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ**

---

(١) سورة البقرة ، الآية: ١٤٣ .

(٢) سورة المدثر ، الآيتان: ٤ ، ٥ .

(٣) سورة المزمل ، الآية: ٢٠ .

لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلاَ شُكُورًا ﴾ (١) .

طاعة لربها وشكراً على نعمائه ، عارفة أن هذا المال وديعة ، أو عارية ، لن يأخذ منه الإنسان درهماً ولا ديناراً حين يحين أجله ، ويودع فى رمسه .

ثم ها هى النفس ، المسلمة المطمئنة ، تتشبه بالملائكة ، فتصوم شهرها ، أملاً فى التقوى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٢) .

تذكر به حاجة الفقير ، والمسكين ذى المتربة ، فتسارع إليه غوثاً بما يحفظ حياته ، أو يعينه كذلك على طاعة ربه ، لأن الإنسان أخ للإنسان ، ورب بنى الإنسان واحد ، هو الذى خلق فسوى ، وقدر فهدى ، فضل بعضهم على بعض فى الرزق ، ودعاهم للتساند ، والتعاون ، لتتواصل بهم الحياة إلى حينها الموقوت ، ولو أغناهم جميعاً ، لطغوا ، وبغوا وما استقامت بهم أولهم دنياهم : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى ﴾ (٣) .

ومن هنا كان التفاضل فى الرزق ، فمن أحسن وشكر أدام الله عليه نعمته ، ومن طغى وبغى وقال إنما أوتيته على علم عندى ، خسف الله به وبداره الأرض ، وأصبح الذين تمنوا مكانه أو مكانته بالأمس يقولون : ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون بنعم الله ، فكان صفاء النفس ، ونقاء القلب وطهرة المال ، فقد أفلح من زكى نفسه بالصلاة وبالصوم ، وماله بالزكاة ، ثم هذه الرحلة إلى مؤتمر الحج الأكبر فيه يجتمع المسلمون من كل صوب يتدفقون محرمين متجردين من زينة الدنيا قد نذروا أنفسهم لطاعة ربهم ، خائفين عذابه ، حاجين ومعتمرين ، رجالاً ونساء ، شيباً وشباناً ، حتى جمعهم الله يوم عرفة ، كان ذلك المؤتمر قبل أن يعرف الإنسان المؤتمرات ، مؤتمر أمة تدين لربها

(١) سورة الإنسان ، الآية : ٩ .
(٢) سورة البقرة ، الآية : ١٨٣ .
(٣) سورة العلق ، الآيتان : ٦ ، ٧ .

بالطاعة ، وتلبى داعية شاكرة ، متشاورة فى أمور الدين والدنيا ، عالمة أن صلاح هذه بذاك ، ثم ينسابون بين المشاعر ، ولكل مكان ذكره وعمله ، حتى إذا تمت نسكهم طافوا حول الكعبة التى شرفها الله ، وجعلها أول بيت وضع للناس ، يصلهم بربهم ، ويجمعهم خمس مرات مفروضة فى اليوم والليلة .

هل ترى لأمة مثل هذه الدعائم؟ إنها صنع الله أتقن كل شىء . . . .

ألا ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ** ﴾ فعودوا أيها المسلمون إلى دعائم الإسلام فأقيموها فى أنفسكم ، وفى بيوتكم ، وفى مجتمعاتكم ، عودوا إلى بنيانكم فأقيموه ، فهو ذاتيتكم ، وخصالكم التى بها تعرفون ، وعلى غيركم من الأمم ترتفعون ، فما كان الإسلام أسماء تتسمون بها ، وإنما ديناً تعتنقونه ، وشريعة تتحاكمون إليها ، فيستقر بينكم العدل ، وتنجاب الظلمات ، وتتواصل الشعوب ، وتنضوى تحت لواء القرآن ، وعندئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء .

* * * * * * * * *

رعايـــة الإســـلام للمصلحــــة وتيسيره على الناس

روى أصحاب السنن عن النبى - ﷺ - أنه قال: «**يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا**» متفق عليه .

إن الإسلام راعى مصلحة الناس فى أحكامه ، فلا تخلو فريضة من فرائضه أو واجب من واجباته التى أمر بها الله - سبحانه - فى القرآن ، أو على لسان رسول الله محمد - ﷺ - إلا ووراء ذلك من المصالح للناس مالا يدخل تحت الحصر .

وإيضاحاً لهذا نقول: إن الله فرض على المسلمين والمسلمات الصلاة خمس مرات فى اليوم والليلة يطهر بها القلوب ، ويكبح جماح النفوس ، فلا تطغى ولا تتكبر ، وكيف يراودها هذا الكبر والعجب ، وهى ترى نفسها ساجدة خاشعة لربها ، معرضة عن كل الدنيا من مال ، وولد وزينة ، حين يقف المسلم أو المسلمة بين يدى الله مصلياً ، مسبحاً ، مكبراً ، ومن قبل الصلاة قد طهر جسده وثوبه ، فأسبغ الوضوء ، وأخذ الزينة عند كل مسجد .

ألا ترى فروض الصلاة الخمس قد عودت المسلمين النظام ، والنظافة ، كما عودتهم على تنظيم الأوقات ، فأى مصلحة تلك التى تتبع هذه الفريضة تنظم وتنظف وتقوم السلوك ، وتدعو للتواضع والمساواة ، فالكل راكع ، ساجد لرب واحد ، فى صف واحد ، يختلط فيه الغنى والفقير ، والأمى والمتعلم ، كل الناس من شتى البيئات والهيئات ، لا مراسم فى الوقوف بين يدى الله إلا ما فرض الله ، والفضل للسابق ، وهذا الصوم تزكو به نفس الصائم ويطهر قلبه من العجب والرياء ، يحس بالجوع ، فتأخذه الرحمة فتجود يده على الفقراء واليتامى والمساكين .

وهذه الزكاة وسيلة المودة ، والتراحم بين الفقراء والأغنياء ، وبها تطهر نفس المسلم من الشح والبخل ، ويزكو المال مباركاً فيه ﴿ **وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ**

وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ [1] .

أليست هذه مصالح للناس أفراداً وجماعات ، أليس تشريعها فى الإسلام تقوية للروابط الإنسانية ، وإزالة لأسباب الشحناء والبغضاء والحسد من المجتمع .

وهذا الحج فريضة ساوت بين الناس جميعاً : كلهم قد تجرد من زينة الحياة ، من فاخر الثياب ، ولذيذ المنام ، وتساووا فيما لبسوه من لباس الإحرام ، وتسابقوا فى الطواف والسعى ووقفوا على عرفات ، وفى المذدلفة ومنى . . مسلمين مستسلمين لله تائبين ، عابدين ، قد انخلعوا من مظاهر الحياة الدنيا وأخبتوا إلى ربهم يسألون العفو والعافية ، إنها مصلحة المصالح تخضع النفوس العاتية ، وتذيب القلوب القاسية ، فتخشع لذكر الله ، وتتواضع لخلق الله ، فى مشهد من مشاهد المساواة والأمن والأمان فى الإسلام مصون بما شرع الله رحمة ، وعدالة وطمأنينة وسلامة للمجتمع .

قال الماوردى - رحمه الله - فى كتابه (الأحكام السلطانية) : "الحدود زواجر ، وضعها الله للردع عن ارتكاب ما خطر ، وترك ما أمر لما فى الطبع من مغالبة الشهوات الملتهبة عن وعيد الآخرة بعاجل اللذة ، فجعل الله - تعالى - من زواجر الحدود ما يردع به ذا الجهالة حذراً من ألم العقوبة ، وخيفة من نكال الفضيحة ، ليكون ما حظر من محارمه ممنوعاً وما أمر به من فروضه متبوعاً ، فتكون المصلحة أعم ، والتكاليف أتم .

هذه مصلحة المصالح أمان واطمئنان للمجتمع ، فالعقوبة ليست فى واقعها انتقاما من الجانى ، وإنما هى زواجر وضعها الله للردع عن ارتكاب الفواحش ، فالإسلام قرر مبدأ الشرعية ، والمساواة ، والشخصية للعقوبة ، وراعت الشريعة فى تنفيذ العقوبة حالة الجانى ، وظروفه حين وقعت جريمته . . . .

فالعقوبات الشرعية إنما شرعت رحمة من الله تعالى بعباده . فهى صادرة عن رحمة الخلق ، والإحسان إليهم ، كما يقصد الوالد تأديب ولده ، وكما يقصد الطبيب معالجة

---

(١) سورة سبأ ، الآية : ٣٩ .

المريض .

فكل أمر أو نهى وراءه من الله حكمة بالغة قد تظهر ، وقد تخفى على الناس ، وقد يبدوا أن فى العقاب قسوة وشدة ، ولكن حقيقة الأمر ما قرره الله - سبحانه - فى شريعته - الإسلام - من أحكام هى ذات المصلحة ، وعين الحكمة والعدالة والرحمة ﴿ **وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ** ﴾ (١) ﴿ **يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ** ﴾ (٢) .

ويقول رسول الله - ﷺ - : «**إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه ، فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشىءمن الدلجة**» عن أبى هريرة ، رواه البخارى .

أى استعينوا على طاعة الله - عز وجل - بالأعمال الصالحة فى وقت نشاطكم وفراغ قلوبكم ، بحيث تستلذون العبادة ، ولا تسأمونها ، مثل ما يفعل المسافر حيث يتخير الوقت المناسب المريح فيصل إلى مقصده دون تعب .

أحاديث كثيرة ميسرة ومبشرة ، ومحذرة غير منفرة ، تفصح عن منهاج الإسلام ، وقصده فى تشريعه إلى تحقيق مصلحة المجتمع الإنسانى بوجه عام والمجتمع الإسلامى بوجه خاص ، وذلك الدين القيم الذى ارتضاه الله لعباده ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ** ﴾ (٣) .

****

---

(١) سورة الحج ، الآية : ٧٨ .
(٢) سورة البقرة ، الآية : ١٨٥ .
(٣) سورة المائدة ، الآية : ٥٠ .

المصالح المعتبرة فى الإسلام

ما من فريضة افترضها الإسلام ، أو حد استوجبه إلا لمصلحة للفرد بل وللناس جميعاً ، مستهدفاً بها المصالح الدينية والدنيوية .

فقد استهدفت نصوص القرآن والسنة تحقيق المصالح المعتبرة للناس والتى أرجعها العلماء إلى أنواع ثلاثة هى : -

أ - المصالح الضرورية : وهى المحافظة على الدين ، وعلى النفس ، وعلى العقل ، وعلى النسل ، وعلى المال ، لأن هذه العناصر جميعاً تتوقف حياة الناس فى هذه الدنيا ويوم يلقون ربهم ، بحيث إذا اختل بعضها اختل نظام الحياة .

ب - المصالح الحاجية : وهى تلك التى تدفع الحرج عن الناس كما فى بعض الصور من المعاملات .

ج - المصالح التحسينية : وهى التى تستهدف الأخذ بمحاسن العادات ، وكمال الخلاق ، وقد ألغى الإسلام مصالح كانت لدى أقوام آخرين كالرهبانية ، إذ قال رسول الله - ﷺ - «**لا رهبانية فى الإسلام**» ، ذلك لأنها لا تتفق مع قواعده فى العبادات والمعاملات .

وقد ارتضى الإسلام للمسلمين أن يكون معيار الصلاح والفساد من قبل الله وحده ، محدداً فى القرآن ، أو فى سنة رسول الله ، ذلك لأن : القوانين الأساسية التى جاءت بها الشريعة الإسلامية لا تتغير ، ولا تتبدل ؛ بل صلاحيتها مستقرة ، مستمرة فى كل الأزمان والأماكن .

وقد أفصحت النصوص القطعية عن أحكام الله بوجه قاطع للشك رافع للالتباس فلا يقبل من أحد أن يستدرك على الله مصلحة يعرض بها نصاً شرعياً قطعياً ، فإذا قال الله فى القرآن فى المواريث : ﴿ **لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ** ﴾ لم يعد هناك مقال لأحد فى هذا الموضع ، فالشريعة الإسلامية استهدفت غاية مثالية ، على عكس القوانين

الموضوعة إذ غايتها نفعية محضة ، تقدم مصلحة الفرد على مصلحة الجماعة ، بينما الإسلام نظم واجب الفرد نحو ربه فى العبادات ، وواجبه نحو نفسه بقواعد الأخلاق بالإضافة إلى تنظيم علاقة الفرد بغيره من أفراد المجتمع الإنسانى فالشريعة الإسلامية دين ، وقانون ، وأخلاق ، وهذه الغاية المثالية هى التى أدت إلى عدم الفصل فى الفقه الإسلامى بين القواعد القانونية ، والقواعد الدينية والأخلاقية فقامت القواعد الفقهية الإسلامية على أساس أخلاقى لم يسبق إلى هذا أى نظام قانونى قديماً ، أو حديثاً .

وللإيضاح . . . نسوق فى هذا ما أسماه رجال القانون بنظرية سوء استعمال الحق .

فقد جرى الفقه الإسلامى على تقييد استعمال الحق ليس فقط بانعدام نية إيذاء الغير ، أو انتفاء الإهمال ، أو المصلحة بالنسبة لصاحب الحق ، بل قيد استعمال الحق فوق هذا بالغرض الاجتماعى ، والاقتصادى الذى تقرر الحق من أجله ، ومن أهم تطبيقات قاعدة - سوء استعمال الحق - فى الفقه الإسلامى حقوق الجوار ، والرفق بالمدين عند التنفيذ على أمواله ، والتدخل فى تسعير المواد الضرورية للمجتمع حماية له من الاستغلال ، أو حبس السلع ، وايقاع الناس فى الحرج ، والمشقة بناء على تخطئة المحتكر فى حديث رسول الله - ﷺ - : «**لا يحتكر إلا خاطئ**» .

وقاعدة الضرورة . . فقد أصلها فقهاء االمسلمين على أساس من آيات القرآن ، والأحاديث الشريفة التى عبرت عن تقدير الضرورات فآيات التحريم فى القرآن استثنت بعدها : ﴿ **فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ** ﴾ [1]

ووضع الفقهاء قواعدهم المعبرة (لا ضرر ولا ضرار) ، (المشقة تجلب التيسير) ، (الضرورات تبيح المحظورات) ، (الضرر يدفع بقدر الإمكان) ، ليس ذلك فى المعاملات فحسب ، بل وفى العبادات ؛ فلا تخلو فريضة من الفرائض إلا وفى الأمر بها ، أو فى النهى عن المحرم مصلحة من المصالح التى لا تخفى ، وإلا وفيه تقدير للضرورة التى هى مصلحة من المصالح ، ففى الطهارة تخفيفات ، وفى الصلاة تخفيفات

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٧٣ .

منها ، وفى الصوم تخفيفات للضرورة ، ثم كل عبادة من العبادات وراءها مصلحة للمسلم ، فهذه الصلاة بَيَّن القرآن ما وراءها ﴿ **إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ** ﴾ حتى قيل إن الله قابل أمراً بنهى فالنفس تأمر بالشر: ﴿ **إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ** ﴾ [1] والصلاة تنهى عن الشر: ﴿ **إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ** ﴾[2] .

وجاء أمر آخر فى القرآن مؤكداً لهذا النهى عن الفحشاء والمنكر: ﴿ **اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ** ﴾ [3] .

وهكذا إذا تتبعنا العبادات وجدنا فيها المصالح العاجلة فى الدنيا وما عند الله خير وأبقى .

اللهم اهدنا الصراط المستقيم . . . صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين . . . آمين .

* * * * * * * * *

---

(١) سورة يوسف ، الآية: ٥٣ .
(٢) سورة العنكبوت ، الآية: ٤٥ .
(٣) سورة البقرة ، الآية: ١٥٣ .

العقيدة وأثرها فى الإصلاح

العقيدة قوة تدفع صاحبها إلى غايته ، وتجعله غير هياب ، مقداماً لا يبالى بالعقبات حتى يصل إلى ما ابتغاه فهى بوجه عام أساس كل صلاح .

والعقيدة الدينية : أصل الإيمان ، بل هى ذات الإيمان ، فمن تحدث بلسانه ، دون أن يوافق قوله ما فى قلبه ، لم يكن مؤمناً ، ومنساير الناس مسايرة ظاهرية فيما يقولون كان منافقاً ، وهاهو القرآن يصف هؤلاء المنافقين الذين تنطلق أفواههم بما ليس فى قلوبهم فيقول الله فى سورة المنافقون :

﴿ إِذَا جَاءكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ * اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [١] .

فى سورة البقرة قول الله :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [٢] .

هذه العقيدة هى التى تحدث بها رسول الله - ﷺ - يوم أن اجتمع قومه وقالوا لعمه أبى طالب : إن أراد ابن أخيك مالاً جمعنا له ما يغنيه ، وإن أراد جاهاً أو ملكاً ملكناه علينا ، فماذا كان جواب الرسول - ﷺ - قال كلمته الخالدة عن إيمان وعقيدة برسالته : **«والله يا عم : لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر أو أهلك دونه ما تركته»** .

وصاحب العقيدة الحقة لا يقبل بها بدلاً ، فلا يبيعها بمال ، وهاهو القرآن يخبرنا عن موقف الرسول - ﷺ - حين ساومه قومه على أن يعبد آلهتهم شهراً ويعبدون إلهه

(١) سورة المنافقون ، الآيتان : ١ ، ٢ .
(٢) سورة البقرة ، الآية : ٨ .

عاماً .

ذلك ما جاء فى سورة الكافرون :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ (١) .

إصرار على العقيدة ورد قاطع حاسم ينفى المساومة وينأى عن الضعف والتخاذل .

هاهو الرسول - ﷺ - يمضى فترة الرسالة فى مكة على مدى ثلاثة عشر عاماً يؤصل هذه العقيدة وينبتها وينميها فى قلوب المؤمنين ، ويجادل عنها ويكشف نورها وحقيقتها أمام أولئك الغافلين المتكبرين ، مجادلاً بالتى هى أحسن مخاطباً العقول والأفئدة موجها النظر إلى ملكوت السموات والأرض ، مثيراً الفكر والعواطف إلى ما ينبغى أن يكون عليه الإنسان من عبودية لله الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى ، مبرزاً للناس ما غفلوا عنه من مواطن العبرة والعظة وعظمة الخلق الدالة على قدرة الخالق ووحدانيته :

﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ (٢) .

لم يشتغل بفروع الدين ، ولم تفرض عليه طلباً لإرساء الأساس الصالح فى العقيدة الصحيحة ، كل هذا يدلنا على أن تأسيس العقيدة فى المحل الأول من كل دعوة إصلاح ، فهى إذا أرسيت التحمت بالقلوب ، وطاوعتها الجوارح ، فكان السير إلى الخير دون رياء أو تظاهر ، ينطلق اللسان بالقول الطيب فى غير تصنع أو نفاق ، أو هرب من الحق ، إن العقيدة الراسخة تصنع الخير وتدفع إليه وتبعد عن الشر والهلكة ومن هنا كان قول الرسول الكريم - ﷺ - : **«لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن»** .

---

(١) سورة الكافرون .

(٢) سورة الذاريات ، الآية : ٢١ .

أى أن العقيدة تستتبع الفضيلة ، ولا تتصور معها الجريمة ولا الفسوق ولا العصيان ، وإن الجريمة حين ترتكب إنما ترتكب فى وقت ارتفعت فيه العقيدة والفضيلة وحلت محلها الرذيلة والأفكار الضالة والنزوات الطائشة .

هذا هو الإسلام الذى ربط بين العقيدة والأخلاق الكريمة القويمة التى تلزم صاحبها فى جميع الظروف ومع كل الناس بالتعامل الحسن الطيب ، فلا يكون التعامل حسب المنفعة والمراتب والأقدار بل أن العقيدة والخلق القويم هما الموجهان للإنسان إلى العدل والمساواة وليست العقيدة فردية فحسب وإنما تكون كذلك فريضة جماعية بل واجتماعية تقوم على القدوة الرشيدة والأسوة الحسنة .

إن تدبير أمور الجماعة أيا كانت أسرة أو شعباً أو أمة يقتضى دائما رسوخ العقيدة وقيامها على الحق والعدل ، إذ الحكم بلا عقيدة كالمسافر بلا زاد .

إن العقيدة الدينية هى الدافع الأول لما بعدها من العقائد فى الاجتماع أو السياسة أو الاقتصاد ، لأنها الوسيلة إلى الاستقرار النفسى ومن حرم ثبات العقيدة الدينية واستقرارها عاش سقيم الفكر ، مزعزع النفس لا يعمل الخير ولا يدل عليه ، بل ولا يحمل الناس على الخير لأن فاقد الشيء لا يعطيه .

فالإيمان بالله ورسوله هو الذى يعلم الإيمان بحقوق الوطن والمواطنين .

وفى كتاب الله القدوة وفى رسوله - ﷺ - الأسوة ، فلنصحح عقيدتنا ونثبتها ولنؤمن إيمان الواثق بربه وبوعده :

﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾ (1) .

إنه الله سبحانه الذى قال فى سورة يونس :

﴿ فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ

---

(1) سورة النمل ، الآية : ٦٢ .

عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ (١) .

وليؤمن قادة الأمة وزعماؤها بأن الإيمان الصحيح والعقيدة الصافية هى الوسيلة إلى الصلاح والفلاح وصدق الله فى قوله فى سورة الرعد :

﴿ إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ (٢) .

ولا تغيير لما فى النفس إلا بصحة العقيدة ونفاذ البصيرة وعقد النية والعزيمة على الصلاح والإصلاح فلنأخذ بزمام أنفسنا ولننهها عن غيها فإن ذلك عين الحكمة والصواب .

* * * * * * * * *

---

(١) سورة يونس ، الآية : ٩٨ .

(٢) سورة الرعد ، الآية : ١١ .

تكريم الله للإنسان وحرمة قتله إلا بالحق

هذا الإنسان صنع الله الذى أتقن كل شىء ، خلقه فسواه فعدله ، وقد امتن على هذا الإنسان بتكريمه إياه ، فقال فى سورة الإسراء: ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ** ﴾ حيث جعل الله له شرفا وفضلا ، وهو تكريم ينفى النقصان ، فقد جعله بشراً سوياً على هذه الهيئة فى امتداد القامة وحسن الصورة ، مما لا يصح لغيره من المخلوقات الحيوانية ، فكان له إرادته وقصده فى تدبير شئونه ، وليس كغيره مما يشاركه فى الحيوانية يقاد ويساق ، ويستخدم ، وخصه الله بالمطاعم المتنوعة والمشارب والملابس ، وهذا مالا يتسع فيه حيوان اتساع بنى آدم ، الذين يكسبون المال لأنفسهم خاصة دون سائر الحيوان ويلبسون الثياب ، مع أن غاية كل حيوان أن يأكل لحما نيئا ، ثم إن الإنسان يتناول طعامه بيده ، وهو مميز كذلك بالنطق والإفصاح عما يريد بعبارته ، وإن اختلفت لغات بنى الإنسان ، وهو مسلط على سائر المخلوقات ينتفع بها ويسخرها ، وكان عقله هو عمدة التكليف ، وبه يعرف الله ويفهم كلامه ، ويوصله إلى تصديق رسل الله الذين من أجله ابتعثوا إليه لهدايته ، وأنزلت الكتب من عند الخالق سبحانه ، وقد مثل الأقدمون شرع الله بالشمس ، والعقل للإنسان بالعين فإذا كانت سليمة وفتحت فرأت كل شىء ، وأدركت تفاصيل كل شىء ، ولا يفاضل بين الإنسان وبين غيره من الحيوانات بعظم الجسد أو بقوته ، فقد جعل فى بعض الحيوان خصالا غير متوافرة فى بنى الإنسان كسرعة جرى الفرس ، حتى اتخذه الإنسان معياراً لتقدير القوة ، وضخامة جسد الفيل وقوته ، والشجاعة فى الأسد ، وإنما كان التكريم للإنسان وتفضيله على ما سواه بالعقل .

تلك منة جلية من الله تعالى الأعلى على إنسان هذا الوجود ، ساقها الله فى القرآن ، مذكراً بنعمه هذا الإنسان ونسله : ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ**

وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ (١) .

لقد كرمنا الإنسان حيا وميتا ، فهذا رسول الله محمد - ﷺ - نهى عن كسر عظم الميت بقوله : «**كسر عظم الميت ككسره حيا**» ، وأوجب الإسلام فى شريعته دفن الإنسان فى باطن الأرض أو فى مقبرة ، تكريماً وبعداً بجسده عن أن تنهشه السباع والكلاب والطير .

وحين قتل ابن آدم أخاه فيما مضى من الزمان ، وقد كانت أول حادثة قتل وموت فى ذرية آدم ، كما أنبأ بها القرآن فى قول الله سبحانه :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ من أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ * فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٢) .

وبعد هذا الجرم الأول من الإنسان لأخيه الإنسان كانت حيرته : كيف يتصرف فى هذا الجسد الذى أفقده عقله وحركته ، وصار عبئا يحمله كما يحمل إثم جريمته الأبدية؟!

﴿ فَبَعَثَ اللّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ (٣) .

ثم كان شرع الجزاء :

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي

(١) سورة الإسراء ، الآية : ٧٠ .
(٢) سورة المائدة ، الآيات : ٢٧ - ٣٠ .
(٣) سورة المائدة ، الآية : ٣١ .

الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [١] .

وبهذا القضاء من الله كان قتل النفس الإنسانية عمداً جريمة بغير حق ، جريمة منكورة لا يقرها شرع ، ولا يتقبلها وضع ، ولا يستسيغها مجتمع ، وكانت غاية شرائع الله - خالق الناس وهذا الكون - بالمحافظة على حياة بنى الإنسان وصون حياتهم ، فلا تهدر دماء إنسان ، أى إنسان ، إلا إذا قتل إنساناً عمداً ، وكان مفسداً فى الأرض وجاءت شريعة الإسلام خاتمة الشرائع مقررة القصاص من القاتل عمداً بغير حق أو فساد فى الأرض فى قوله سبحانه :

﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاْ أُولِيْ الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [٢] .

هذه القاعدة شددت فى التنفيذ من قتل الإنسان بغير حق التنفير منها ، والتنكير عليها ، وبينت أحكامها الدنيوية ، وفى الآخرة تحذيراً للنفوس من ارتكابها صيانة للأرواح ، وقطعاً لعوامل الشروع ، وعملاً على استقرار الأمن فى المجتمع ، بكل ممكن من الوسائل .

وتأيدت هذه القاعدة بآيات كثيرة فى القرآن ، منها :

﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ .

وفى الحديث الذى رواه البخارى ومسلم وغيرهما : «**أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة فى الدماء**» .

ولقد شرع الله القصاص من القاتل عمداً بغير حق عقوبة فى الدنيا حقنا لدماء الناس وكفا للعدوان على الأرواح ، ودفعاً للأحقاد من النفوس .

وقد اتفق الفقهاء على أن القصاص فى القتل العمد لا يقيمه إلا أولوا الأمر الذين

---

(١) سورة المائدة ، الآية : ٣٢ .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ١٧٩ .

فرض عليهم النهوض بالقصاص وإقامة الحدود ، وغير هذا من العقوبات حتى تنقطع الخصومة ، فليس لولى القتل أن يقتاد لقتله بنفسه أو قبل الحكم باستحقاق القصاص من السلطان ، أو ممن أنابه فى القضاء أو التنفيذ ، إذ السلطان قائم مقام الأمة والمجتمع على ما يقيده الخطاب فى الآية ١٧٩ من سورة البقرة حيث خاطبت جميع المؤمنين بالقصاص ، ولا يأتى أن يقوم كل المؤمنين بالقصاص فأقاموا السلطان مقام أنفسهم فى إقامته القصاص ، وغيره من الحدود بشروطها ، بل وغير هذا من التعازير .

وتخريجاً على هذا فلا يحل لأحدد أن يقتص من قاتل أو يأخذ حقا يدعيه لدى آخر إلا بمعرفة السلطان بنفسه أو من ينيبه ، لأن الله هو الذى شرع إقامة السلطان ليقبض أيدى الناس بعضهم عن بعض .

أما سلطان أولياء القتيل ؛ فهو حق طلب القصاص من السلطان فحسب أو العفو عنه .

وسيظل قول الله العدل هداية للبشرية :

﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاْ أُولِيْ الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ .

* * * * * * * * *

بناء الشخصية فى الإسلام

روى البخارى بسنده عن ابن عباس - رضى الله عنهما -: «**لعن رسول الله - ﷺ - المتشبهين من الرجال بالنساء ، والمتشبهات من النساء بالرجال**» .

إن الإسلام قد كرم الإنسان بالعقل ، وفاضل بين الرجل والمرأة فى التكوين الجسدى فاختص كلا منهما بميزات ، وعلامات يعرف بها ويوصف .

ولقد كان المجتمع الإسلامى السليم حفيظاً على أن تظل للرجل خصائصه وصفاته ومهامه ، وأن تحتفظ المرأة بما خصها الله من صفات ومهام وخصائص ، حتى يظل المجتمع قوياً متماسكاً ، يعرف كل من الرجل والمرأة موقعه فيه دون أن تزول الفروق بينهما فى المظهر والمخبر .

ومن هنا كان هذا الوعيد باللعن والطرد من رحمة الله وعونه ورضوانه للرجال المتشبهين بالنساء ، وللمتشبهات من النساء بالرجال .

بل إن فى بعض روايات هذا الحديث : «**لعن رسول الله - ﷺ - المخنثين من الرجال والمترجلات من النساء**» ، أو أولئك الرجال الذين يتشبهون بالنساء فى كلماتهن وحركاتهن وملابسهن ، وهؤلاء النساء اللاتى يتخلين عن خلق الله إلى التظاهر بمظاهر الرجال فى كلامهم وحركاتهم ولباسهم .

وفى هذا الحديث الشريف دعوة صريحة إلى ضرورة الحفاظ على الشخصية المسلمة للرجل وللمرأة على حد سواء ، فلا يجوز للرجل أن يتزيا بزى اختصت به المرأة ، كما أنه ليس لها أن تشارك الرجال بالظهور بمظهرهم فى الزى والحركة والكلام .

وليس من الإسلام ما نشاهده الآن على بعض الشباب من وضع السلاسل الذهبية حول العنق مدلاة على صدر مكشوف ، ومن ارتداء بعض الفتيات (البنطلون) الضيق المحدد لملامح أجسادهن ، وارتداء الفتيان والفتيات القمصان المشتركة التى لا يتمايز بها هذا عن هذه .

بـل وقـد كشـفت الفتـيات عـن سـواعدهن متشـبهات بالفتـيان فأثـرن الفتـنة بهـذا الصنيع ، مخالفات بذلك أمر الله فى القرآن :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (١) .

ففى هذه الآية الكريمة احتفاظ المراة بزيها الساتر السابغ ، الذى يحفظ لها كرامتها ، ويقيها فضـول النظر المحرم ، ويضعها فى نطاق العفة ، فلا يجرؤ أحد أن يؤذيها بنظرة فاجرة ، أو بكلمة داعرة ، ذلك قول الله : ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ﴾ .

إن هذه المشاهد التى نراها اليوم فى شوارعنا ومجتمعاتنا ، بل وجامعاتنا دخيلة على المجتمعات الإسـلامية ، وفدت إلينا من قوم غرقوا فى العبث بالقيم والفضائل ، وتعروا عـن كـل فضـل وعفـة ، وانحـرفوا عـن جادة الفطرة الإنسانية السوية التى فطر الله الناس عليها وانحرفوا بالحرية إلى الفوضى .

وكانـت نـتائج هذا على الإنسانية فى هذا العصر وخيمة ، وثمرتها مرة ، كانت هذه الأمراض وتلك الأوبئة التى تجتاح الإنسـان فـى جسـمه وخُلُقه ، كـان هذا التيه الذى يتخبط فيه الشباب اليوم فكراً وخلقاً ، دون التزام بالخلق والدين .

إن هذا الحديث الشريف يحذرنا من الانحراف بشخصية الإنسان رجلاً أو امرأة ، بل يحثنا عـلى أن تكـون هـذه الشخصـية متوازنة ، سـوية ، متكاملة ، لا يطغى فيها جانب عـلى جانـب آخر ، ولا تذوب أو تنهار ، بل تحافظ على مقوماتها ، وتحتفظ بسماتها ، تقـاوم الضـلالات ، وتسـوس نفسـها بمـا ساسـها بـه الإسـلام ، فتعطى للجسم حقه من العناية ، دون إخلال بفطرة الله التى فطر الناس عليها :

﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ (٢) .

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية : ٥٩ .
(٢) سورة سبأ ، الآية : ٥ .

وللمظهر ما يستوجبه من الرعاية دون أن تنتمى المرأة بزيها إلى غير أنوثتها ، أو يتشبه الرجل فى زيه بالمرأة ، متجاوزاً خلق الله إياه رجلاً سوياً .

إن على المسلم ، وعلى المسلمة ، بحكم الإسلام معالم لابد من الاحتفاظ بها ، وإن ما يفعله غير المسلمين فى أنفسهم لا يصلح لنا ما دام غير متفق مع أحكام دين الله بالإسلام .

ذلك ما يبدوا واضحاً قاطعاً فى الحديث الذى رواه أبو داود بإسناد صحيح ، عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال :

«لَعن رسول الله - ﷺ - الرجل يلبس لبسة المرأة ، والمرأة تلبس لبسة الرجل» .

فلنعد إلى الإسلام ، ولنستمع إلى وصاياه ، ولنصلح مجتمعنا بآدابه ، وليكن كل فرد رقيباً على نفسه ، مستجيباً لربه فهو حسبه ، وكفى بالله حسيباً . . . . .

* * * * * * * * *

نظرة الإسلام إلى المال والعمل

الإسلام هو : الدين الوسط الذى واءم فى تشريعه بين احتياجات بنى الإنسان فى هذه الحياة .

وقد أقامت شريعة الإسلام نظاماً مالياً متوازناً لتحقيق هدف إعمار الأرض ، وإسعاد البشر ، وفتح الإسلام أبواب الرزق الطيب ، وحث عليه ، وأتاح الفرصة لتنمية ثروة الأفراد ، وحرص الإسلام على تهيئة المناخ الصالح الخالى من الفساد ، كى تنمو شجرة المال الإسلامى مباركة مثمرة طيبة .

ومن هنا كان اهتمام الإسلام بطرق كسب المال ، باعتباره قوام الحياة للفرد والمجتمع ، ولذلك حث على العمل والكسب ، ففى سورة الجمعة قول الله - سبحانه - :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾ [1] .

وفى سورة الأعراف قول الله - سبحانه - :

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ﴾ [2] .

وجاء فى الأثر:

«الدنيا خضرة حلوة ، من اكتسب فيها مالاً من حله وأنفقه فى حقه ، أثابه الله وأورده جنته ، ومن اكتسب فيها مالاً من غير حله ، وأنفقه فى غير حقه أحله الله دار الهوان» .

وفى القرآن الكريم فى سورة البقرة قول الله - سبحانه - :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً ﴾ [3] .

وفى السنة الشريفة قول الرسول - ﷺ - : **«أيما عبد نبت لحمه من سحت فالنار**

---

(١) سورة الجمعة ، الآية : ١٠ .

(٢) سورة الأعراف ، الآية : ١٠ .

(٣) سورة البقرة ، الآية : ١٦٨ .

أولى به» .

ولقد اعتبر الإسلام الساعى على رزقه ، كأنما يسعى فى سبيل الله ، فقد جاء فى الحديث الشريف : « . . . **وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو فى سبيل الله**» .

والعمل أصله حلال ، والحرمة أمر طارئ عليه ، ولهذا لم يحرم الإسلام من وسائل الكسب إلا ما كان به ظلم أو بخس أو غبن أو استغلال ، أو اتجار فى المحرمات ، أو فيما يضر الناس ، أو يؤدى إلى تكديس الأموال وعدم استثمارها ، وهذا ما أشار إليه قول الله - سبحانه - فى سورة التوبة :

﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [1] .

إذ أن أحد وجوه الاكتناز حبسها عن التداول والتدوير فى أنواع الكسب المباح من تجارة وزراعة وصناعة ، واستغلالها كذلك فى القروض الربوية المحرمة ، لأن فى هذا حبسا لتلك الأموال عن النفع العام ، ومن ثم فإن من صور الكسب الحرام : استغلال المال بالإقراض المحرم ، أى بالفوائد .

ومن صوره : التجارة فى المحرمات وصناعتها ، كالخمور والمخدرات وفاسد الأطعمة والأشربة والميتة والأصنام .

ومن صور الكسب الحرام : خلط السلع أو إخفاء عيوبها ، إذ أن هذا محرم ، وقد حكم رسول الله ﷺ بأن : "من غش المسلمين فليس منهم" .

أو تدليس ومنه بيع النجش - أى المزادات غير المنتظمة - والتى يتدخل فيها بعض الناس لرفع الأسعار قصد الإضرار أو بيع الشىء بأكثر من قيمته الفعلية .

ومن المحرمات فى العمل استغلال الأجير ، وانتقاص حقوقه ، وبخس الناس أشيائهم ، واحتكار الأطعمة وما يحتاجه الناس ، ويشح فى الأسواق استغلالاً

---

(١) سورة التوبة ، الآية : ٣٤ .

للحاجة ؛ وفى مثل هذا جاء الحديث الشريف الذى رواه أبو هريرة - رضى الله عنه - **«ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة ، ومن كنت خصمه خصمته : رجل أعطى بى ثم غدر ورجل باع حراً فأكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يوفه»** (١) .

ويقول الله - سبحانه - فى مثل هذا :

﴿ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ ﴾ (٢) .

ومع الحث على الكسب الحلال ، والترغيب فى العمل المنتج المثمر االمفيد للفرد وللمجتمع ، وضع الإسلام ضوابط على الإنفاق ، وذلك لضمان حسن استثمار المال فيما يخدم مصلحة الأمة ، وكى لا يترك الأمر دون ضوابط وكان مما حرم فى الإنفاق : الرشوة ، وأكل الأموال بالباطل ، والسفه بالإنفاق فيما لا يقره الشرع والعقل .

ولقد حفلت آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول - ﷺ - بالآيات والوصايا التى تنظم كسب الأموال ، وإنفاقها فى الأوجه المشروعة ، وتحث على الاعتدال ، وامتدح القرآن صاحب المال الذى يتقى الله فيه ؛ ذلك قول الله - سبحانه - فى سورة الليل :

﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى * وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى * إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى * وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾ (٣) .

****

(١) جامع الأحاديث جـ ٣ صـ ٦٧٩ .

(٢) سورة الشعراء ، الآية : ١٨٣ .

(٣) سورة الليل ، الآيات : ١٧ - ٢١ .

الأموال واستثمارها فى الإسلام

الاقتصاد فى الإسلام سياسة تشريعية من الله - سبحانه - فى أصولها ، وفى ذات الوقت إنسانية من حيث تطبيقها ، ونتيجة لهذا فإنها سياسة ثابتة باعتبار مصدرها ، ومتطورة فى تطبيقها ، ومن قبيل هذه المصادر قوله - تعالى - :

﴿ وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ ﴾ (١) .

وقوله تعالى :

﴿ كَيْ لاَ يَكُونَ دولـة بَيْنَ الأَغْنِيَاء منكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (٢) .

﴿ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ (٣) .

من هذه الأصول وغيرها أخذ فقهاء الإسلام قواعد استثمار المال حذراً من الوقوع فى الربا المحرم ، مخالفين بذلك عناصر الفوائد الربوية ، التى تتمثل فى هذه النقاط : تحديد الفائدة قدراً وزماناً ، مع ربطها برأس المال دون الربح ، وتحميل الخسارة على غير رأس المال ، عاملين على تحقيق مناط الاقتصاد فى الإسلام ، وهو المصلحة لأن الغاية جلب المنافع ودرء المفاسد للفرد والجماعة ، يدل لهذا قول الله - سبحانه - :

﴿ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ ﴾ (٤)

﴿ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ ﴾ (٥) .

وحديث : **«لا ضرر ، ولا ضرار»** .

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٨٨ .
(٢) سورة الحشر ، الآية : ٧ .
(٣) سورة الحشر ، الآية : ٧ .
(٤) سورة البقرة ، الآية : ٢٧٩ .
(٥) سورة الأعراف ، الآية : ٨٥ .

والأصل فى فكرة البنوك : الانتقال من عمل الصيارفة الفردى إلى عمل جماعى ييسر حركة التعامل والتجارة ، وقد كان التجار المسلمون يقومون بهذا النشاط بصورة فردية من الزمن الغابر .

ولما تأسست البنوك باشرت صوراً متعددة ، وينحصر أغلب هذه الصور فى تحصيل حقوق العملاء لدى الغير ، أو القيام بسداد ديونهم ، أو تحصيل أرباح الأوراق المالية ، أو بيعها ، أو تنفيذ اكتتاب فى أسهم ، ثم أيضاً قبول المستندات والأوراق والأشياء النفيسة لحفظها فى الخزائن .

وهذه الأعمال يمكن أن تقوم البنوك الإسلامية بالكثير منها ، لأنها تندرج فى مفهوم العقود الشرعية المعروفة ، كالإجارة ، والوكالة بالأجر ، والحوالة ، والكفالة ، ومن ثم تحتم تقييم هذه المعاملات لإدراجها تعاقدياً تحت واحد أو أكثر من العقود الشرعية سالفة الذكر ، على أنه من المستقر فى فقه الإسلام أن العقود غير محصورة وطرق الاستثمار المالى بالتالى يمكن التحديث فيها ، بمراعاة القواعد والضوابط التى أشارت إليها الأصول العامة للشريعة "المؤمنون عند شروطهم إلا شرطا أحل حراماً أو حرم حلالا" ، ولا قيد فى الأسماء وإنما الغاية المسميات ؛ فالعمولة المعروفة فى الأعمال المصرفية ليست محرمة بالإطلاق ، بل إذا كانت وليدة عمل ربوى صارت محرمة ، وإذا كانت عملا تعاقديا قام به البنك كانت من قبيل الأجرة الجائزة لأن أعمال البنوك فى خدمة العملاء تدخل فى نطاق عقد الأجير المشترك ، وهذا يستدعى عرض هذه العقود على أصول الشريعة للتأكد من بعدها عن المعاملات الربوية .

ولا ينبغى أن يقتصر نشاط البنوك الإسلامية على الأعمال التجارية ، بل إن عليها أن تنشئ الشركات الصناعية ، ولها فى أحكام الاستصناع فى الفقه الإسلامى سند كبير ، بل إنه يمكن فى هذا النطاق إنشاء البنوك النوعية ، كبنك صناعى إسلامى يقوم على إنشاء صناعات تتوفر خاماتها فى البلاد الإسلامية ، وبنوك كبنك التعمير والإسكان ، وإحياء الأراضى البور القابلة للاستصلاح ، وهى بحمد الله كثيرة مع توافر

سبل إصلاحها ومواردها المالية فى مصر والسودان وغيرهما ، كل هذه طرائق لاستثمار مال المسلمين ، المودع فى الخزائن أو المبعثر فى البنوك الربوية ، يتقوى به أعداء الأمة الإسلامية ، وبحمد الله أيضا تتوفر الخبرات فى نواح كثيرة ، ومن ثم فإن اتجاه البنوك الإسلامية إلى تلك الوجوه فى الاستثمار دون الاكتفاء بالعمل التجارى ، يجذب إليها العديد من المتعاملين الذين يبتغون كسبا طيباً لا سيما فى هذا الوقت الذى بدأت فيه الصحوة تغزو قلوب المسلمين ، دفعاً لهم إلى التماسك والتآخى والتزام أوامر الله واجتناب المحرمات من الربا والفسق .

هذا ومن المقرر فى الإسلام تحريم ركود المال واختزانه ، وأصل هذا قول الله - تعالى - :

﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [1] .

والآية التالية لها ، وغير هذا من نصوص القرآن والسنة ، التى تدعو إلى مداومة استثمار المال وتنشيطه ، سعياً إلى التقليل من أثقال العوز والحاجة بين المسلمين ، وحتى لا تتجمد الثروات فى يد طائفة محدودة تتحكم بها فى المجتمع :

﴿ كَيْ لاَ يَكُونَ دولــة بَيْنَ الأَغْنِيَاء مِنكُمْ ﴾ [2] .

وفقه الإسلام يقرر أن كل مابه قوام الجماعة الإسلامية فتوفيره من فروض الكفاية ، بحيث إذا تركه الجميع أثموا ، ومن أجل هذا كان من مهام البنوك الإسلامية توجيه نشاطها إلى ما يدعم اقتصاد الأمة من صناعة وزراعة وعلوم مستحدثة ، بذلك تستحوذ على إقبال أصحاب الأموال المسلمين ؛ لأن المأمول من المصارف الإسلامية ألا يقتصر عملها على الإقراض وقبول الودائع ، بل عليها أن تسلط الطرق العديدة المستحدثة فى استثماراتها ، سواء فى مجال الإنتاج ، أو الخدمات كأعمال التخزين

---

(١) سورة التوبة ، الآية : ٣٤ .

(٢) سورة الحشر ، الآية : ٧ .

والوكالة .

ولا شك أن سلوك البنوك الإسلامية فى التعامل أسلوب التعاقد الرضائى مع أصحاب الأموال على الأجر الذى يتقاضاه نظير الخدمات المشروعة التى يقوم بها لهم على وجه رافع للمنازعة ، يدعوهم للاطمئنان إلى إسناد أعمالهم إليها ، ومتى اطمأن المتعاملون معها إلى حسن ممارستها ، وإخلاص القائمين عليها ، وحرصهم على تنميتها ، ازداد الإقبال على الإسهام فيها ، وتكثير رأس مالها ، مما يؤدى إلى تفرعها فى مختلف أرجاء العالم الإسلامى ، وعندئذ تتمكن من الاستثمار بمدخرات المسلمين ، ويرتبطون بها فى تعاملهم ، ولها فى سبيل ذلك أيضا أن تباشر تجميع أموال الزكاة ، وتبثها قروضا حسنة للمحتاجين ، أو هبات لمن مستهم ضراء من حريق أو فقد عائل ، حتى يكون لها بهذا نشاط اجتماعى أساسه أحكام الإسلام وتوجيهاته .

****

دور المسجد فى التوجيه الاجتماعى للمجتمع الإسلامى

يؤدى المسجد دوراً هاماً فى المجال الاجتماعى بالنسبة للمجتمع الإسلامى ، حيث كان - ولا يزال - يعمل على المحافظة على تماسك الأسرة الإسلامية ثم الأمة الإسلامية ، وذلك عن طريق ما يلقى فيه من محاضرات وخطب تتناول اهتمامات الشعوب الإسلامية فى كل شأن من شئون الحياة .

ولعل من أبرز المجالات التى ينبغى أن يقوم بها المسجد فى العصر الحديث هو أن يكون محوراً لمجموعة من الخدمات الخيرية كأن يكون إلى جانبه : مستوصف طبى لمعالجة المرضى ، وناد للشباب يمارسون فيه الرياضة البدنية الخفيفة ، والنشاطات الثقافية ، والترفيهية البريئة ، ومكتبة للقراءة والمطالعة ، ودار لعرض الأفلام العلمية والاجتماعية والتربوية الهادفة ، إلى غير ذلك من النشاطات الأخرى ، وبذلك يسترجع المسجد دورة التوجيهى الهام فى المجتمع حسب متطلبات العصر الحديث ، ولذلك ينبغى إعادة النظر فى هندسة بناء المسجد فى وقتنا الحاضر ، حتى تكون وافية بالأغراض الاجتماعية النافعة للجماعة الإسلامية ، بالإضافة إلى وظيفتها الأساسية ، وهى العبادة ، والتوجيه الدينى .

ولقد انتشرت فى عصرنا ظاهرة الدروس الخاصة للطلاب - فى مختلف المراحل التعليمية - وأولى بالمسجد أن ينشط إلى مساعدة الطلاب تيسيراً لهم مكان آمن يستظهرون فيه دروسهم ، ويجدون فيه المرجع : من الكتاب فى المكتبة ، والأستاذ المتخصص فى المواد المختلفة .

ولقد كان المسجد فى صدر الإسلام هو : المكان الذى يتخرج منه العلماء ، والفقهاء ، والقادة الصالحون .

كما كان المسجد هو : المركز الذى تدار فيه حياة المجتمع ، وعلى نور رسالته تسير خطى حياة الناس .

كان بحق كما وصفه الله فى قوله : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا

اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ * رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ * لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [1] .

وقد أجمل ابن تيمية - رحمه الله - وظائف المسجد على عهد رسول الله - ﷺ - بقوله : وكانت مواضع الأئمة ومجامع الأمة هى المساجد ، فإن النبى - ﷺ - أسس مسجده المبارك على التقوى ، ففيه الصلاة ، والقراءة ، والذكر ، والتعليم ، والخطب ، وفيه السياسة ، وعقد الألوية ، وتأمير الأمراء ، وتعريف العرفاء ، وفيه يجتمع المسلمون ، لما أهمهم من أمر دينهم ودنياهم .

إن أداء الصلاة فى جماعة ، وظيفة من وظائف المسجد تُنمى فى الإنسان المسلم صفات وخصائص ، تقربه من الله - سبحانه - وتقيه ارتكاب المعاصى وتحى الوازع الدينى لديه ، ويعينه هذا على أن يصلح ما بينه وبين الناس .

والصلاة فى جماعة تحقق التآلف والتراحم والمساواة بين المسلمين ، وقد وردت الأحاديث الصحيحة التى تحث على صلاة الجمع والجماعات فى المساجد ، حيث تفضُلُ صلاة الجماعة على صلاة الفرد فى بيته أو سوقه بسبع وعشرين درجة .

ولقد أوضح الرسول - ﷺ - حكمة صلاة الجماعة ، وما تنطوى عليه من تكوين روح الجماعة بين الناس وإشاعة المودة والتراحم فيما بينهم ، فى قوله الشريف الذى رواه الإمام أحمد عن معاذ بن جبل - رضى الله عنه - أنه قال : «**إن الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم ، يأخذ الشاة القاصية ، والناحية ، فإياكم والشعاب ، وعليكم بالجماعة والعامة والمسجد**» .

وفى المساجد الجامعة تقام صلاة الجمع ، بما فيها من خطبة يتعلم منها المسلمون ما ينفعهم فى دينهم ودنياهم ، ويتداولون فيما يهمهم من الأمور ، وتتواصل المجتمعات

---

(١) سورة النور ، الآيات : ٣٦ - ٣٨ .

الصغيرة ويتعاطفون ، ويتآزرون .

وفى المساجد ذكر الله - تعالى - الذى يدخل فيه تلقى العلم ، وتعليمه ، والدعوة إلى البر ، ومزاولته ، من أجل رضا الله ، والتماس رحمته ومغفرته .

لقد تلقى الصحابة - رضوان الله عليهم - فى المسجد : القرآن وعلومه ، والسنة الشريفة ، قولاً ، وتقريراً ، وأفعالاً ، فكان المسجد بهذا ميزاناً لشخصية المسلم الكامل ، والمجتمع الفاضل الذى وصفه الله فى قوله - تعالى - :

﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ [١] .

إنه - ﷺ - معلم يقرأ القرآن على المسلمين ، ويشرح آياته ، ويعمل على تطهير نفوسهم ، ويعلمهم الحكمة وأمور شتى لم يكونوا على علم بها .

والنبى - ﷺ - يعرف وظيفته ، ويستشعر مهمته ، ومسئوليته التى حملها إياه ربه - سبحانه وتعالى - فيقول : «**إن ربى أمرنى أن أعلمكم ما جهلتم مما علمنى**» .

ويدرك صحابته - رضوان الله تعالى عليهم أجمعين - هذا حيث وصفه أحدهم بقوله : ما رأيت معلماً قبله ، ولا بعده أحسن تعليماً .

ومن هنا كانت أهمية المسجد فى التوجيه الاجتماعى للمجتمع الإسلامى ، وصدق رسول الله - ﷺ - حيث قال : «**ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ، ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده**» .

****

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٦٤ .

إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر

هذه الصلاة، عبادة مفروضة، فى ركعات معدودة، وسجدات محدودة، هى فى الواقع: بمقدمتها وركوعها وقيامها وتلاوة القرآن فيها، صلة بالله، يخاطب المصلى ربه بآياته، ويذكره فى ركوعه بأعظم ذكر - سبحان ربى العظيم - وفى سجوده، بأعلى فكر - سبحان ربى الأعلى -، لقد وصف رسول الله - ﷺ - اطمئنانه بالصلاة حين قال:

«وجعلت قرة عينى فى الصلاة».

هذه الصلاة: انقطاع لحظات عن حركة الحياة، ووقوف بين يدى الله - سبحانه - يؤدى المؤمن فيها حق الشكر، وحسن الذكر، يناجى ربه مخلصاً، متطهراً من أدران الحياة، وشوائب الأعمال.

إلى هذا يرشدنا رسول الله - ﷺ - فى تشبيه تقريبى للصلاة:

«لو أن بباب أحدكم نهراً يغتسل فيه خمس مرات فى اليوم والليلة، أكان يبقى على جسده من درن؟» قالوا: لا .. يا رسول الله، قال: **«كذلك الصلاة»**.

تعالوا نتابع خطواتها - تلك الفريضة المطهرة، الناهية عن الفحشاء والمنكر:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مَّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [1].

بهذا: يعدنا الله - سبحانه - للصلاة، لأنها وقوف بين يديه، ومناجاة له، فلابد لهذا الموقف - موقف المؤمن مع الله - من أن يكون طاهراً متطهراً:

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٦.

﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ (١) .

فإذا تطهر المسلم مستعدا للصلاة - انجذب إلى خالقه ، واشتغل قلبه بذكره ، وانصرف عن الدنيا وشواغلها ساعة الصلاة ، فكان بينه وبينها حجاب ، أقامه بدخوله الصلاة بقوله : (الله أكبر) نعم : الله أكبر من الدنيا لأنه خالقها ، وأكبر من الإنسان لأنه - سبحانه - خلق فسوى ، وقدر فهدى ، فكيف يقف المسلم بين يديه مشغولاً بغيره ، منصرفاً بفكره؟ .

نعم : الله أكبر ، فتح بين الله وعبده ، ذكر يسمعه الله ، ويثيب عليه ، قوة للروح والقلب ، وإعلان دائم للإنسان أنه من خلق الله وإلى الله ، فلا تستهويه الدنيا بما فيها من غرائب وعجائب ، ولا تبطره النعمة فتنسيه المنعم :

﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى * إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى ﴾ (٢) .

وبعد هذا الإعداد بالطهارة وحسن الزينة : نقف - بين يدى الله - متفرغين ضارعين فى أوقات محدودة ، وفرائض معدودة ، نقرأ القرآن ، ونركع ونسجد ، ونسبح الله كثيراً ، ونصلى على أنبيائه ورسله ، وعلى خاتمهم محمد - صلى الله عليهم جميعاً وسلم - نشهد لله بالوحدانية ، ولمحمد بالرسالة ، نلتمس رضا الله ، فى صفوف منتظمة تتبع إمامها ، تتحرك بحركته ، وتنطق بكلمته ، تصاحبه وتتبعه ، ولا تسابقه أو تسبقه .

هكذا نكون خمس مرات مجتمعين ، كلنا يرقب الله ، ويعتقد أنه :

﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ (٣) .

وأنه : ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ (٤) .

---

(١) سورة المدثر ، الآيتان : ٤ ، ٥ .
(٢) سورة العلق ، الآيات : ٦ - ٨ .
(٣) سورة غافر ، الآية : ١٩ .
(٤) سورة طه ، الآية : ٧ .

بهذا : يكون الحضور فى الصلاة ، وبهذا تكون الصلاة صالحة مصلحة ، ناهية عن الفحشاء والمنكر .

إذ كيف يفكر المسلم فى عصيان الله ، واقتراف الإثم أو ترك الأمر ، وهو قادم من مناجاة ربه مفضيا بين يديه بذات نفسه ، وبعد هذا سيعود إلى نفس الموقف فى فريضة أقرب ، خمس فرائض تطهر النفس والجسد فما يبقى فى واحد منهما من درن .

هذه وظيفة الصلاة كما حددها القرآن :

﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ (1) .

ذلك لأن الصلاة والذكر يحملان على دوام المراقبة لله ، ومحاسبة النفس ، ومباعدة الهوى والشيطان ، فكل مصل - بحق - يحاسب نفسه فى الأقوال والخواطر والأفعال .

هى الصلاة : سبيل الوصول إلى الله ، وما الوصول إلى الله إلا استقامة الطريق :

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾ (2) .

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ (3) .

هى الصلاة : تدعونا للتواضع ، فلا تزاحم ، ولا تضارب ، ولا تخطى للرقاب ، والمكان لمن سبق ، لا لمن استعلى أو لذوى الجاه ، أو لصاحب الأموال .

هى الصلاة ، مساواة تامة ، فالغنى والفقير متجاوران بالقدم والجانب يركعان ويسجدان لإله واحد ، ويتلون قرآنا واحداً ، أو يسمعانه من إمامهم الواحد ، لا يتأذى ذلك من هذا ولا يتعالى عليه .

هى الصلاة : التى فرضها الله على المسلم فى كل حال ، ففى حالة الإقامة والسفر الصلاة ، وفى السلم الصلاة ، وفى الحرب الصلاة ، وفى الصحة الصلاة ، وفى

---

(١) العنكبوت ، الآية : ٤٥ .

(٢) سورة هود ، الآية : ١١٢ .

(٣) سورة يوسف ، الآية : ١٠٨ .

المرض الصلاة قائماً وقاعدا ، وعلى جنبه ، وبالإيماء - تيسيرا من الله وفضلا وتقريبا لعباد الله من ربهم ، يناجونه فى عسرهم ، كما يناجونه فى يسرهم :

﴿ وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ [1] .

إنها دعوة الأنبياء :

﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾ [2] .

ووصية الله إلى الأنبياء :

﴿ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ [3] .

وهى مسئولية كل مؤمنة ومؤمن عن نفسه وعمن هو مسئول عنهم :

﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾ [4] .

﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾[5] .

نعم : هى الصلاة طريقنا إلى النظافة والنظام ، والصف الواحد والكلمة الواحدة ، والقبلة الواحدة ، والهدف الواحد .

نعم هى الصلاة : أدعو المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات إلى أدائها طاعة لله بإقامتها ، فبالصلاة تنتظم أمورنا كانتظام صفوفنا فيها وتتحد قلوبنا ، لأنها فى الصلاة متوجهة لرب واحد ، وقبلة واحدة ، نتلو آيات واحدة ، نستعين بها عسى الله أن يجمع شمل الأمة ويوحد كلمة قادتها ويذهب ما فى الصدور ، فقد تخطفتنا الأمم

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٤٥ .
(٢) سورة إبراهيم ، الآية : ٤٠ .
(٣) سورة مريم ، الآية : ٣١ .
(٤) سورة مريم ، الآية : ٥٥ .
(٥) سورة طه ، الآية : ١٣٢ .

من حولنا ، واستهان بنا من كانوا دوننا ، فكانت الحروب غير المتكافئة ، لا لقلة عدد أو مال ، ولكن لتفرق الكلمة وضياع الهيبة .

نعم : هى الصلاة . . التى كان يفزع إليها رسول الله - ﷺ - فى الكرب والحرب ، فلنجتمع فى الصلاة ، ولنحافظ عليها . .

﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴾ (١) .

ولندع الله أن يؤلف بين قلوب الأمة - شعوبا وحكومات ، وملوكا ورؤساء - عسى الله أن يأتى بالفتح أو بأمر من عنده فتقوى عزائمنا ، ويرتد عنا من استهانوا بنا مع كثرتنا .

والله غالب على أمره ، وهو ولينا ونعم النصير . .

* * * * * * * * *

---

(١) سورة النساء ، الآية : ١٠٣ .

المسلم كيف يكون؟ - مع خالقه
- مع مجتمعه.

لقد ساق إلينا الذكر الحكيم كتاب رب العالمين قول الله - جل شأنه - :

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ﴾ (١) .

والإسلام يعنى أن يسلم الإنسان نفسه ووجهه وقلبه لخالقه جل علاه ، فيراه الله حيث أمره ولا يراه حيث نهاه .

ومن هنا كان على المسلم - فى إطار ذلك - أن يتقى الله ويرعاه ، ويدرك أن عبوديته الصادقة لله هى مصدر شرفه وفضله وعزته ، لأنها عبودية ترقى به عن أن يكون عبداً لماله : «**تعس عبد الدينار وعبد الدرهم**» (٢) ، أو أن يكون عبداً لهواه :

﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٣) .

أو أن يكون عبداً لشيطانه :

﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (٤) .

أو أن يكون عبداً لأى شئ سوى الله :

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ (٥) .

وبهذه العبودية الخالصة المخلصة تقوى صلة الإنسان بربه ويكون أهلاً لرضاه

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٩ .
(٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه ، صحيح البخارى جـ ٦ صـ ٦٧ .
(٣) سورة الجاثية ، الآية : ٢٣ .
(٤) سورة يس ، الآية : ٦٠ .
(٥) سورة الإخلاص .

وحبه ، آمنا من مؤاخذته وغضبه فما أقل حياء من يطمع فى فضل الله بغير عمل ، وإن كان لا حرج على فضل الله .

ولا شك أن تلك العبودية الصادقة تنعكس على علاقة الإنسان بمجتمعه لأنه يأخذ نفسه بما أمر به دينه ، والمسلم كما وصفه رسول الله - ﷺ - «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده**» [١] ، «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا**» [٢] ، «**مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**» [٣] ، إلى غير ذلك مما يجب أن يكون عليه المسلم فى علاقته بالآخرين حتى فى ظل التكاليف الشرعية .

وما تعبد الله به عبادة من فرائض وطاعات ، نراها تثمر خير الإنسان وخير المجتمع ، ألم تر إلى الصلاة مثلا كفريضة من أهم الفرائض ، بل هى عماد الدين ، يحدثنا القرآن الكريم قائلاً :

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾ [٤] .

وهذا يعنى أن الصلاة إذا أديت كما ينبغى أن تكون من خشوع فى أدائها ، ومحافظة على أوقاتها تبنى مجتمعاً ملائكى السلوك ، مطهراً من الفحشاء والمنكر ، لا يبغى فيه إنسان على مخلوق للخالق ، وطلبا لثوابه ، ورهبة من عقابه ، ولا يضمر أحد لأحد شراً ، وإنما يتعايش الجميع فى ظل التعاون والتراحم والتكاتف والتلاحم على تقوى من الله ورضوان ، وليست الصلاة وحدها هى التى تحقق ذلك ، وإنما : سائر العبادات ، تبنى المسلم الصالح الذى به يتكون المجتمع الصالح ، والذى جاء الإسلام يؤسسه ويبنيه ويشيده ويعليه ، المؤمن للمؤمن فيه كالبنيان يشد بعضه بعضا ، أو كالجسد الواحد إذا اشتكى بعضه اشتكى كله ، وبهذا يتحقق وصف الأخوة الذى

---

(١) رواه الترمذى والنسائى عن أبى هريرة ، مجمع الفوائد جـ ١ صـ ٢٠ .
(٢) ((المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا)) عن أبى موسى للشيخين ، جـ ٢ صـ ٣٩٨ .
(٣) (عن النعمان بن بشير) رواه الشيخان [٣٩٩ جـ ٢]
(٤) سورة العنكبوت ، الآية : ٤٥ .

أسبغه الله على مجتمع الإسلام :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [1] .

وصارت هذه الأخوة نسبهم ، وحلقة الوصل فيما بينهم .

فى ظلها يتشاورون فى شتى حوائجهم ، ويتسابقون إلى خيرهم ، يؤثر كل منهم أخاه ولو كان به خصاصة ، ويسعى بذمتهم أدناه ، وهم يد على من سواهم ، متمثلين أمر الله فى القرآن :

﴿ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ [2] .

وقوله سبحانه :

﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ [3] .

****

---

(١) سورة الحجرات ، الآية ١٠ .

(٢) سورة الأنفال ، الآية : ٤٦ .

(٣) سورة المائدة ، الآية : ٢ .

١ - الإسلام والسلام

قال الله - سبحانه - فى سورة البقرة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ (١) .

وفى سورة المائدة قول الله - سبحانه - :

﴿ قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٢) .

السلم نعمة وأزار والحرب فى كل أشكالها محنة وأوزار .

هذه لغة الإسلام : فى طبيعة دعوته ، وفى الأسوة الحسنة التى بازدهارها ارتفعت أعلامه ، وسادت شريعته وأحكامه .

ذلك : أن السلم هو أساس البناء للمجتمع الإنسانى ، وهو مشرق شمس الألفة عليه ، وقوة الأواصر المتشابكة به ، ولا تكون الحرب إلا للدفاع عن هذا الأساس من السلام ليظل المجتمع المسلم قائماً وشامخاً متماسكاً ، ولتبقى الألفة حول الإيمان مشرقة ، والأواصر فى طاعة الله قوية .

ومن هنا أفاد القرآن فى تلك الآيات أن سبل السلام المرشدة إلى نعم الحياة قد جاءت من الله ، ﴿ قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴾ .

ومن أظهر معانى سبل السلام فى القرآن أنه لا يُكره أحد على الإسلام ، وآية ذلك أن الله أمر بموادعة من ألقوا السلام إلى المسلمين فقال :

﴿ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ﴾ (٣) .

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢٠٨ .
(٢) سورة المائدة ، الآيتان : ١٥ ، ١٦ .
(٣) سورة النساء ، الآية : ٩٤ .

وقال فى شأن من كف عن قتال المسلمين وعن الكيد لهم :

﴿ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً ﴾ (١) .

وإتماماً وضماناً لاستمرار وقيام دعوة الإسلام على السلام ، كان من صلاح الأمر أن يكون السلام حافظاً لقوة المسلمين ودافعاً أذى أعدائهم عنهم .

وقد حرص الإسلام فى وصاياه على السلم والسلامة طلبا لوحدة الأمة ، ووقاية من كل ما يفرق صفوفها ويضعف قوتها ؛ فقال الله فى القرآن :

﴿ وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ ﴾ (٢) .

وقال :

﴿ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ (٣) .

وفى الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ : «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده**» ، متفق عليه .

فالإسلام قام على الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ، ونادى بالسلام الذى اشتق اسمه منه ، وجعل تحية أهل الإسلام السلام ، وطالما نهى عن البغى والعدوان ، وتوعد المعتدين والبغاة بأشد أنواع العقاب .

وفى هذا الحديث ما يشير إلى معنى دقيق سام حيث تلوح عبارته إلى أن فى تسمية المسلم بهذا الاسم الذى منه اشتق اسم الإسلام إشارة إلى أن معنى سلم جعل الناس سالمين من أذاه ، وليس معناه فقط جعل نفسه سلما لله ، وفى هذا التعليل إغراء على المسالمة ، وتحذير من مضارة الناس إذ فى حالة المضارة بالأذى يكون حمل لقب

---

(١) سورة النساء ، الآية : ٩٠ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية : ١٠٣ .

(٣) سورة الأنفال ، الآية : ٤٦ .

الإسلام كأنه يحمله زوراً وهو ليس له أهل .

وتحقيقا للسلام حث الناس على التدخل فى الخصام والخلافات طلبا لتسويتها وتحقيقا للسلم بين الناس .

ففى الحديث الشريف : «**انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً**» ، قالوا يا رسول الله : هذا ننصره مظلوماً ؛ كيف ننصره ظالماً؟ قال : «**تمنعه عن الظلم**» .

وهذه دعوة إلى العدول عن المواقف السلبية فى حال الخلاف بين الناس حتى لا يتفاقم الخلاف ويشتد .

ولقد فرض القرآن التدخل إذا وقع القتال بين طائفتين من المؤمنين لإيقاف القتال ، كما فى سورة الحجرات :

﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [١] .

أليس هذا فرضاً على المسلمين أن يسعوا إلى السلام ، ويوقفوا القتال ، بل يقاتلون الباغين .

ومن هنا كان من يقف متفرجاً فى حال العدوان على أحد وهو قادر على المنع آثماً .

ولنذكر دائما قول الله - سبحانه - :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ [٢] .

****

---

(١) سورة الحجرات ، الآية : ٩ .

(٢) سورة الحجرات ، الآية : ١٠ .

٢ - الإسلام والسلام (السلام مع الله)

فى حديث سابق تحدثنا عن الإسلام والسلام وأنهما متلازمان معا يجريان فى ثلاث شُعب أولها السلام مع الله :

وهذا ما بدأ به رسول الله ﷺ دعوته حيث دعا إلى توحيد الله ، فكان من أسس عقيدة الإسلام (شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله) ، هذه الشهادة إعلان من المسلم بدخوله الإسلام وإيمانه بكل ما جاء به من عبادات ومعاملات وأخلاق مجتنباً ما نهى الله عنه .

والمسلم بهذا يكون قد أسلم وجهه لله وهو محسن وتعلق بأوثق ما يتعلق به من الأسباب وهو جانب الله عز وجل ، كما وصفه الله فى سورة لقمان بقوله :

﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾ [1] .

ومن السلام مع الله الاعتماد والتوكل عليه بعد الأخذ بالأسباب ، ذلك قول الله - سبحانه - فى سورة آل عمران :

﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ .

ومن السلام مع الله عبادته بما فرض وأوجب وذلك يتمثل فى إقامة أسس الإسلام التى جاءت فى حديث رسول الله ﷺ الذى رواه البخارى عن ابن عمر :

«بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، و إقام الصلاة و إيتاء الزكاة ، و الحج ، وصوم رمضان» .

وينبغى أن تكون كلمة التوحيد نطقاً باللسان واستقراراً فى الجنان بمعنى أن يكون القلب بها حاضراً واللسان ذاكراً ، حتى تخشع لها الجوارح ، وينقشع بها الشيطان ، وتمتلئ النفس خضوعها لربها وشكراً لخالقها على أنعمه التى لا تعد ولا تحصى . .

ثم إن كلمة التوحيد براءة من الشرك بالله ، تهيئ النفس للصفاء والنقاء ، وتلقى

---

(١) سورة لقمان ، الآية : ٢٢ .

أوامر الله بالتسليم والإذعان ، من غير جدل ولا مراء .

ومن السلام مع الله تقواه ومراقبته ونجواه ، والإخلاص فى العبادة ، والعمل الصالح المثمر خير للمسلم وللناس أجمعين .

وتقوى الله وسيلة إلى العلم ، ففى سورة البقرة قول الله - سبحانه - :

﴿ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

والتقوى وسيلة إلى اليسر ، ففى سورة الطلاق قول الله :

﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ (٢) .

وفى ذات السورة قول الله - سبحانه - :

﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾ (٣) .

فالسلام مع الله يستتبع الإحسان واليسر ، فلا عسر ولا تلبيس فى العقيدة ، بل سماحة وبساطة ، عنوانها كلمة التوحيد المنزهة لله عن كل النقائص ، والموجبة له كل كمال وجلال .

وأى عسر فى عقيدة الإسلام أو بعد قول الله تعالى فى سورة النساء :

﴿ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ﴾ (٤) .

وأى اعتبار للسلام وللسلم فوق هذا الاعتبار القرآنى؟ اللهم . . . . لا .

إن السلام مع الله إيمان وإذعان وعمل ، وتلك هى مكونات الإسلام ، فالعقيدة والشريعة بهما صلاح الفرد والأمة ، وهذا مما يشير إليه قول الله - سبحانه - فى سورة الأنعام :

﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَىَ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٥) .

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢٨٢ .
(٢) سورة الطلاق ، الآيتان : ٢ ، ٣ .
(٣) سورة الطلاق ، الآية : ٤ .
(٤) سورة النساء ، الآية : ٩٤ .
(٥) سورة الأنعام ، الآية : ٧١ .

ومن السلام فى الإسلام أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

حضور كامل فى العبادة فإذا كنت فى الصلاة فاذكر أنك تناجى الله رب العالمين بما علمنا فى كتابه - فى سورة الأنعام -

﴿ قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (١) .

فيخشع قلبك وتطمئن جوارحك ، تسبح باسم ربك العظيم وباسم ربك الأعلى ، وتوقن بأن التسبيح لله فى ركوعك وفى سجودك باطمئنان وإيمان تقرب إلى الله ، وعبادة سبحانه بما شرع وأحب ، ألا تراه قد استجاب دعوة ذى النون كما جاء فى سورة الأنبياء :

﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) .

إن السلام مع الله يتحقق بأن يكون الإسلام كله حاضراً وماثلاً ومتمثلاً فى المسلم بجملة مقوماته ومكوناته : بالعقيدة والأخلاق ، بالعبادات والأذكار بالمعاملات والتشريعات ، إذ الإسلام إنما ينهض بناؤه بكل قواعده وأركانه ، ومنها تكون منطلقاته فى التعامل مع الحياة والسلوك مع البشر ، كما بدت تطبيقاته فى أجمل صورة وأكمل مثال ، فى أخلاق رسول الله - ﷺ - وفى سلوك خلفائه وصحابته وسير الهداة المهديين :

﴿ قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٣) .

* * * * * * * * *

---

(١) سورة الأنعام ، الآيتان : ١٦٢ ، ١٦٣ .
(٢) سورة الأنبياء ، الآيتان : ٨٦ ، ٨٧ .
(٣) سورة المائدة ، الآيتان : ١٥ ، ١٦ .

٣ - الإسلام والسلام مع النفس ومع الناس

تحدثنا عن الإسلام والسلام ، وعن شعبة من شعبه الثلاث ، وهى السلام مع الله ، ونستكمل حديثنا عن شعبتيه الباقيتين : -

أولاهما : السلام مع النفس :

إن السلام الإسلامى ثمرة غراس الشمائل ، والفضائل ، والتقوى ، والتوكل على الله ومحبته ، مما أصل الشرع ، وأثل للحياة من عقيدة وأخلاق ليقوم المجتمع الإنسانى المتوازن ، مجتمع الإحسان والعدل ، الذى تصان فيه الحرمات والحريات ، وتؤدى الحقوق والذمم ، ويحصر السوء فى أضيق المسالك ، إذ النفس الإنسانية أمارة بالسوء ، كما وصفت فى سورة يوسف فى قول الله - سبحانه - :

﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(١) .

ومن ثم جاء الإسلام بالآداب ، والأخلاق ، والتشريعات التى تغلب فى نفس الإنسان روح الخير ، وتهديها إلى تكوين المجتمع الفاضل ، الذى ابتغاه الله للناس . ووصولا إلى سلام الإنسان ، كل إنسان مع نفسه كانت توجيهات الإسلام إلى الخير تعبئة نفسية وعقلية ، وأخلاقية وتشريعية ، حيث وظف الإسلام كل خصال الخير فى النفس البشرية ، واستنهاضها إلى سبيل الله وهو : (السلام) بالحكمة ، والموعظة الحسنة .

والسلام مع النفس : أن تتجه إلى صنائع المودة وفعل الخيرات لجميع الخلق ، ففى سورة آل عمران قول الله - سبحانه -

﴿ وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوْهُ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ (٢) .

ومن ثم : كان صنع الخيرات لذات الخير مطلباً إسلامياً دون نظر إلى ما إذا كان قد

---

(١) سورة يوسف ، الآية ٥٢ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية : ١١٥ .

صادف من هو أهله ، أو لم يكن كذلك .

هذا سبيل من سبل السلام مع النفس فى الإسلام ، حتى تقدم على الخير تؤديه دون مقابل ، ولا ترقب جزاء ، كما وصف الله بعض عباده المؤمنين بقوله - تعالى - فى سورة الإنسان :

﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلاَ شُكُورًا * إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ (١) .

ومن السلام مع النفس إلزامها بالفضائل ، فالصدق فضيلة يجب أن يلتزم بها الإنسان ، لأن الصدق من علامات المتقين ، ذلك قول الله - سبحانه - فى سورة الزمر :

﴿ وَالَّذِي جَاء بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (٢) .

وفى سورة التوبة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٣) .

والأمانة ، والوفاء بالعهد ، وبالوعد ، وبالعقد ، كل أولئك فضائل تتجمل بها النفس الإنسانية ، وتتجلى فيها هذه الكرائم ، حتى تفيض على الحياة البشرية أمناً وسلاماً .

والتواضع من حميد السجايا التى ينبغى أن يتواصى بها الناس حتى تسود بينهم المودة والمحبة والحلم ، بمعنى الستر والصفح من السمات المحمودة ، وقد أثنى الله على إبراهيم - عليه السلام - فى سورة هود فقال :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴾ (٤) .

---

(١) سورة الإنسان ، الآيات : ٨ - ١٠ .
(٢) سورة الزمر ، الآية : ٣٣ .
(٣) سورة التوبة ، الآية : ١١٩ .
(٤) سورة هود ، الآية : ٧٥ .

كما أثنى قوم شعيب - عليه السلام - عليه فى ذات السورة كما فى قول الله :

﴿ إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ (١) .

ومن السلام مع النفس ، حملها على الرفق والإحسان فى القول والعمل ، فى العبادة والمعاملة ، يشير إلى هذا قول الله - سبحانه - فى سورة البقرة :

﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً ﴾ (٢) .

وفى سورة آل عمران فى صفات المتقين :

﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٣) .

ومن السلام مع النفس حملها على الإنصاف ، أى الوفاء بما عليها من حقوق وواجبات للآخرين .

ومن السلام مع النفس أن تحملها على العفة ، وعلى العفاف ، وعلى القناعة ، وحسن السلوك ، والشكر لمن أحسن إليك ، والرحمة بالناس ، بل وبالحيوان ، فقد امتدح الله الذين تواصوا بالمرحمة فى سورة البلد فقال :

﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴾ (٤) .

وغير هذا من صفات الكمال ، والجمال التى هى من أخلاق الإسلام .

ومن السلام مع النفس : أن تكفها عن مساوئ الأخلاق ، كالبطر ، والكبر ، والإعراض عن النصح ، ففى سورة لقمان : قول الله تعالى :

﴿ وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ (٥) .

---

(١) سورة هود ، الآية : ٨٧ .
(٢) سورة البقرة ، جزء من الآية : ٨٣ .
(٣) سورة آل عمران ، الآية : ١٣٤ .
(٤) سورة البلد ، الآية : ١٧ .
(٥) سورة لقمان ، الآية : ١٨ .

وفى سورة المائدة قول الله :

﴿ قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُواْ اللّهَ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (١) .

وأن تكفها كذلك عن الإسراف ، وعن البخل .

ففى سورة الإسراء قول الله :

﴿ وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ (٢) .

ومن السلام مع النفس : أن تكفها عن البهتان والكذب على الناس ، بأن ترتكب الجرائم والذنوب ، وتلصقها بآخر برىء منها ، ففى سورة النساء قول الله - سبحانه - :

﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ (٣) .

وأن تكفها كذلك عن الطعن فى أعراض الناس بالغيبة والنميمة ، ففى سورة الهمزة قول الله :

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ (٤) .

وأن تكف الناس كذلك عن السخرية من الآخرين ، ذلك قول الله - سبحانه - فى سورة الحجرات :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلاَ تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٥) .

وأن تكفها عن الكذب وقول الزور ، ففى سورة الحج قول الله :

---

(١) سورة المائدة ، الآية : ١٠٠ .
(٢) سورة الإسراء ، الآية : ٢٩ .
(٣) سورة النساء ، الآية : ١١٢ .
(٤) سورة الهمزة ، الآية : ١ .
(٥) سورة الحجرات ، الآية : ١١ .

﴿ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ (١) .

وفى سورة الزمر قول الله :

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ﴾ (٢) .

ومن السلام مع النفس : كفها عن الخيانة ، ففى سورة النساء قول الله- سبحانه- :

﴿ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾ (٣) .

وقول الله تعالى : ﴿ وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾ (٤) .

إن السلام مع النفس يتحقق بمراقبة الله وخشيته ، طلبا لصلاح النفس ، والبعد بها عن مواطن الهلاك ، ذلك ما يشير إليه قول الله - تعالى - فى سورة الإسراء :

﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ (٥) .

****

---

(١) سورة الحج ، الآية : ٣٠ .

(٢) سورة الزمر ، الآية : ٣٢ .

(٣) سورة النساء ، الآية : ١٠٥ .

(٤) سورة النساء ، الآية : ١٠٧ .

(٥) سورة الإسراء ، الآية : ٧ .

ثانيتهما : السلام مع الناس .. أو السلام الاجتماعى :

إن الإسلام أرسى للسلام دعائم ، وضرب الأمثال التى تشد الناس إلى الاستمساك به . . . فهذا هو القرآن يعود بالناس إلى أصلهم الإنسانى الأول ، مذكرا بوحدة الأبوين ، مستثيراً فيهم صلة القربى التى تعم الإنسانية كلها .

ففى سورة النساء قول الله - سبحانه - :

﴿ يَـا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَـثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [1] .

وفى سورة الحجرات :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [2] .

هذه الآيات وغيرها تستنهض الناس أن يتعارفوا ، وأن يكونوا أخوة فى الإنسانية ، وأن يعرفوا لهذه الأخوة كافة الحقوق ، بغض النظر عن اختلاف الناس فى اللون ، والدين ، والغنى والفقير ، والمهنة ، فهذه دعوة إلى السلم والسلام بين بنى الإنسان جميعاً تكريماً لهذه الأخوة الإنسانية .

ولقد أوصى الإسلام بالسلام مع : الأهل ، والزوج ، والبنين ، والبنات ، وذوى القربى ، والعشيرة ، وبالجيران ، وبالرفقة فى الطريق ، ففى سورة النساء قول الله - سبحانه - :

﴿ وَاعْـبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَـاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا

---

(١) سورة النساء ، الآية : ١ .

(٢) سورة لحجرات ، الآية : ١٣ .

مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا ﴾ [(١)] .

وفى شأن الزوجين يقول الله - سبحانه - فى سورة النحل :

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ [(٢)] .

وفى سورة الروم :

﴿ وَمِنْ آيَاته أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [(٣)] .

أليس فى هذه الآيات السلام الذى يشمل المجتمع كله من الوالدين إلى القرابة ، واليتامى ، والمساكين ، والجيران ، حتى ولو اختلفوا فى الدين والسلام فى الأسرة بين الزوجين ، والأولاد ، والأحفاد ، تستقيم به الحياة فى المجتمع ، فيتعاونون على البر والتقوى ، ويتناصحون على ما فيه خيرهم ، حتى يؤدوا ما خلقهم الله له ، من عبادة وعمل فى تعاون وتآلف .

وإن السلام فى نطاق الإسلام يواجه الشرور التى قد تسيطر على بعض النفوس ، ومن هنا كان السلام سلاحاً موجها لهذه الشرور التى قد تحيق بالمجتمع ، أو بالأسرة .

فنرى الإسلام قد بث السلام فى العبادات ، والأذكار ، وفى المثل الأخلاقية ، وفى التشريع ، ليكون بها جميعاً قوام السلام الدائم ، السلام الذى ينعقد عليه القلب .

ففى الصلوات يقول المصلى فى التشهد : "السلام عليك أيها النبى" ثم يختم الصلوات بتحية السلام حيث يقول المصلى مع الالتفات يميناً ويساراً : "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته" ، وفى الأذكار : "اللهم أنت السلام ومنك السلام" ، ولقد أوصى

---

(١) سورة النساء ، الآية : ٣٦ .

(٢) سورة النحل ، الآية : ٧٢ .

(٣) سورة الروم ، الآية : ٢١ .

الإسلام بأن يكون السلام شعار المجتمع ، فأصبحت تحية المسلمين حين التلاقى : "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته" .

وقد صار شعاراً كذلك حتى عند زيارة الموتى الذين سكنوا القبور "السلام عليكم دار قوم مؤمنين" ، "السلام عليكم يا أهل القبور" وسمى الله الجنة : (دار السلام) فقال فى سورة الأنعام :

﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

وفى سورة الأحزاب :

﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلاَمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾ (٢) .

وفى وصايا القرآن فى رد التحية فى سورة النساء قول الله - سبحانه - :

﴿ وَإِذَا حُيِّيْتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾ (٣) .

وفى سورة النور :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٤) .

وفى ذات السورة :

﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ﴾ (٥) .

وفى الدعوة إلى الإسلام كان السلام أيضا ، ففى سورة النحل :

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ

---

(١) سورة الأنعام ، الآية : ١٢٧ .
(٢) سورة الأحزاب ، الآية : ٤٤ .
(٣) سورة النساء ، الآية : ٨٦ .
(٤) سورة النور ، الآية : ٢٧ .
(٥) سورة النور ، الآية : ٦١ .

أَحْسَنُ ﴾ (١) .

وفى الحديث الذى رواه مسلم عن أبى هريرة ، قال رسول الله ﷺ : «**لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، أولا أدلكم على شىء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم**» .

إن المسلم الحق : هو الإنسان المسالم فى عقيدته ، وفى دعوته وخلقه وسلوكه ، ولسانه وموقعه وسائر علاقاته ، إنه الأمن متحركاً ، إنه روضة سلام يفىء إليها الخائفون حتى وإن كانوا على غير دينه ، ذلك قول الله - سبحانه - فى سورة التوبة :

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾ (٢) .

ومن عناصر السلام الاجتماعى لدى المسلمين : أن الإسلام لا يكره الناس على الدخول فى عقيدته ذلك قول الله - تعالى - : **﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾** (٣) .

وإذا كان القرآن قد استبعد الإكراه ، والقسر فى نشر العقيدة الإسلامية ، لم يكن للأمة الإسلامية ما يدعوها إلى الاعتداء على الغير ، وحق للمسلمين أن يدافعوا عن هذه العقيدة إذا وقع الاعتداء عليها أو عليهم بسببها ، وهذا حق مقرر لكل أمة تحفظ به ذاتها وكيانها ، وبالمساهمة فى إقامة السلام ، واستقراره واستمراره ، وصون العلاقات بعيداً عن القلق والاضطراب .

نجد هذه المبادئ مقررة فى قول الله - تعالى :

﴿ لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (٤) .

---

(١) سورة النحل ، الآية : ١٢٥ .
(٢) سورة التوبة ، الآية : ٦ .
(٣) سورة لبقرة ، الآية : ٢٥٦ .
(٤) سورة الممتحنة ، الآية : ٨ .

وقوله - سبحانه وتعالى - :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [(١)] .

وقول الله - تعالى - :

﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [(٢)] .

وبهذا الأسلوب الحكيم ، الذى هو تنزيل من رب العالمين يكون المسلمون مأمورين من الله بالتواصل ، وتنمية العلاقات الإنسانية ، واستدامتها والارتقاء بها .

إن الإسلام هو السلام ، ويكفى أن السلام من أسماء الله الحسنى .

فكونوا أيها المسلمون سلاماً مع الله ، ومع أنفسكم ، ومع الناس أجمعين ، تعودوا أمة واحدة موحدة ، يحوطكم الإسلام بالسلام .

﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [(٣)] .

* * * * * * * * *

---

(١) سورة المائدة ، الآية : ٨ .

(٢) سورة الأنفال ، الآية : ٦١ .

(٣) سورة المنافقون ، الآية : ٨ .

من يسر الإسلام وآدابه

كان رسول الله ﷺ رؤوفاً بالمسلمين ، رحيماً بهم وميسراً عليهم ما استطاع .

روى أحمد فى مسنده أنه كان إذا بايعه الناس يلقنهم : (ما استطعت) أى يلقنهم أن يقولوا فى عهدهم مع الله : أن نفى بالعهد : (ما استطعنا) .

وفيما رواه البخارى ومسلم أنه - ﷺ - كان إذا بعث أحداً من أصحابه فى بعض أمره قال : «**يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا**» .

ومما ينبغى العلم به : أن التيسير أصل من أصول الدين الإسلامى ، وسمة من سماته العامة .

فالتكاليف الدينية هى فى حدود الاستطاعة ، ذلك قول الله - تعالى - :

﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ (1) .

وقوله - سبحانه - :

﴿ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ (2) .

وقوله :

﴿ يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴾ (3) .

إن هذا الدين سمح ليس فيه حرج ولا ضيق ، فقد روى فى السنة قولة - ﷺ - : «**بعثت بالحنيفية السمحة**» (4) ، وهذا الحديث معبر عما جاء فى القرآن الكريم ومبين له : يقول الله عز وجل : -

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ

---

(1) سورة البقرة ، الآية : ٢٨٦ .

(2) سورة البقرة ، الآية : ١٨٥ .

(3) سورة النساء ، الآية : ٢٨ .

(4) رواه أحمد .

ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [(١)] .

ويقول سبحانه :

﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [(٢)] .

ويقول :

﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ ﴾ [(٣)] .

هذا أصل من أصول الدين ، وقد كان - ﷺ - رقيق القلب للمسلمين ، رفيقاً بهم ، يوصيهم بالرفق بأنفسهم والإشفاق عليها ، ففى السنن عن أبى موسى الأشعرى - رضى الله عنه - قال : كنا فى سفر فجعل الناس يجهرون بالتكبير - أى يرفعون أصواتهم به - ، فقال النبى - ﷺ - : **«أربعوا على أنفسكم - أى ارفقوا بأنفسكم ، وخففوا عنها - فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً ، إنكم تدعون سميعاً بصيراً ، وهو معكم»** .

وفيما رواه البخارى ومسلم عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : قال رسول الله - ﷺ - : **«إن الله رفيق يحب الرفق فى الأمر كله»** .

ولقد كان رسول الله - ﷺ - يحث أصحابه ، وعماله ، على الرفق واللين ، والتيسير على الناس .

وما أحوج مجتمعاتنا اليوم ، على اختلاف طبقاتها من عمال وتجار وصناع ، وكل من ولى أمراً للمسلمين إلى الأخذ بوصايا رسول الله بالرفق ، والرحمة والتيسير على الناس فى شئونهم وحوائجهم .

روى مسلم عن جرير بن عبد الله - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله - ﷺ

---

(١) سورة الروم ، الآية : ٣٠ .
(٢) سورة الحج ، الآية : ٧٨ .
(٣) سورة المائدة ، الآية : ٦ .

يقول: «**من يحرم الرفق يحرم الخير**» وهانحن أولاء إذا طالعنا أقوال سلفنا الصالح من العلماء المجتهدين نجد أنهم قد أجهدوا أنفسهم في استنباط الأحكام الشرعية والتشريعية، واضعين في اجتهاداتهم، وفهمهم للنصوص العامة في القرآن والسنة التيسير على الناس في العبادات والمعاملات اقتداء بالنصوص الصريحة في التيسير، ألا نرى أن الله حين شرع الطهارة للصلاة بالوضوء أو الاغتسال بالماء جاء بالبديل عند فقده أو تعذر استعماله فشرع التيمم؟ وحين فرض الصوم في شهر رمضان رخص فيه الفطر للمريض والمسافر؟ وجعل العرف المستقر الصالح بمعيار الإسلام سنداً وأصلاً للتشريع: ﴿ **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ** ﴾، وفي الآثار المروية عن ابن مسعود (ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن) وقوة العرف تكمن في حاجة الناس إليه، ذلك أن - استحسان الناس لعادة من العادات التي ارتضاها المجتمع، معناه أن المجتمع لا يمكن أن يجمع على عرف أو عادة مالم يكن ذلك ملبياً لحاجة ملحة، ولا شك أن الأحكام التي وكلها الإسلام للعرف أو العادة تتغير كلما تراجعت أصولها أو اندثرت، وذلك من يسر الإسلام وسماحته.

ولعلنا نقتدي ونستلهم الهداية والإرشاد من الدعاء الذي دعا به رسول الله - ﷺ - فيما روى الإمام مسلم في صحيحه، قال: «**اللهم من ولي من أمر أمتي شيئا فشق عليهم - أي عسر وضيق عليهم السبل - فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم - أي رأف بهم قولاً وفعلاً - فارفق به**».

* * * * * * * *

العلم والتعليم فى الإسلام

لقد افتتح الله - سبحانه - وحى القرآن الكريم إلى الرسول محمد - ﷺ - بقوله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ اقْـرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (١).

وفى هذا حكمة بالغة للمسلمين ، ودعوة إلى أمة الإسلام أن تعلموا ، واطلبوا العلم ، كل العلم .

ولقد أكد القرآن هذه الدعوة فى العديد من آياته ، فتراه يفاضل بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، وتراه يشير إلى صنوف من العلوم والمعارف ، اصطلحنا على تسميتها : بعلم الفلك والتقويم ، وعلم الصحة ، وعلم الملاحة ، والأحياء ، والصناعات والفنون ، وسائر المخترعات ، مما أفاض الله علمه - وما يزال - على بنى الإنسان ، سبحانه ﴿ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ .

وما تزال الإنسانية تتقدم فى العلوم والاستكشافات بالصبر والمثابرة ، والنظر فى الكون وما فيه من عجائب وغرائب لفت القرآن إليها الأنظار ، وكم من مبتكرات جاءت على مثال أجهزة جسم الإنسان ، الذى لفت الله الأنظار إلى كمال صنعه له ، حين قال :

﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ (٢).

«**وطلب العلم فريضة على كل مسلم**» كما أخبرنا رسول الله - ﷺ - فى الحديث الشريف الذى رواه البيهقى عن أنس ، فعلى كل من المسلم والمسلمة ، أن يطلب العلم

---

(١) سورة العلق ، الآيات : ١ - ٥ .

(٢) سورة الذاريات : الآية : ٢١ .

ويسعى إلى تحصيله .

وكلمة العلم فى الحديث معرفة بالألف واللام ، فأى علم يعتبر طلبه والسعى إليه فريضة؟ ثم لهذا الحديث مضمون فردى ، ومضمون جماعى ، ومعنى هذا أن ما يعتبر فريضة على مسلم يعتبر مرحلة على الطريق بالنسبة لمسلم آخر .

كما يشير الحديث إلى أن هناك حداً أدنى للعلم المفروض طلبه ، وهو ما يصح به دين المسلم ، ويتيسر له به كسب رزقه .

ومن ثم فالعلم الذى يتعلق بالدين مما تصح به العقيدة والعبادة من توحيد و من صلاة وصوم وزكاة - إذا وجبت عليه - وحج - إذا كان مستطيعاً - فرض يجب عليه طلبه .

وكذلك العلم الذى يتعلق بالحياة اليومية على المسلم أن يتعلمه ، لا سيما وفروع العلم متجددة كلما تجددت المسئوليات التى تواجه المسلم .

تلك معالم المسئولية الفردية ، نحو طلب العلم ، أما على المستوى الجماعى ؛ فإن العلم المفروض طلبه على وجه الإجمال هو : ما يصح به دين الجماعة ودنياهم .

ولقد كان من التطبيق العملى لطلب العلم فى العصر النبوى ، هو ما صنعه رسول الله - ﷺ - حين جعل فداء كل أسير يقرأ ويكتب أن يعلم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة ، ولا يغيب عن الذهن أن هذا هو باب العلم والتعليم ، ومن ثم كان توجيه الله فى أول ما نزل من القرآن : ﴿ **اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾ وأقسم الله بالقلم فقال :

﴿ **ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ** ﴾ [1] .

توجيها لأهمية القلم والتعليم .

---

(١) سورة القلم : الآية : ١ .

وقال الله تعالى: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ ﴾ (١).

فانظر كيف بدأ - سبحانه وتعالى - بنفسه وثنى بالملائكة وثلث بأهل العلم، وناهيك بهذا شرفا وفضلا وجلاء ونبلا، وقال تعالى:

﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ (٢).

وفى الحديث عن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا حسد إلا فى اثنتين: رجل أتاه الله - عز وجل - حكمة فهو يقضى بها ويعلمها الناس، ورجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الخير**» متفق عليه.

قال ابن عباس رضى الله عنهما: للعلماء درجات فوق المؤمنين بسبعمائة درجة، ما بين الدرجتين مسيرة ٥٠٠ عام.

ومن الآثار التى وردت فى فضل العلم ومكانته قول على بن أبى طالب - رضى الله عنه - (العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والعلم حاكم والمال محكوم عليه، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو بالإنفاق).

وقد قيل: ليس شىء أعز من العلم: الملوك حكام على الناس، والعلماء حكام على الملوك، وهذا باعتبارهم أهل الحكمة والمشورة، وموئل الفكر والتقدير، كل فى تخصصه، وفيما يحسنه.

وقد أمرنا الله تعالى فى القرآن الكريم بالتعلم، فقال - تعالى -:

﴿ فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ ﴾ (٣).

وقال عز وجل: ﴿ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ (٤).

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨.
(٢) سورة المجادلة، الآية: ١١.
(٣) سورة التوبة، الآية: ١٢٢.
(٤) سورة النحل، الآية: ٤٣.

وقد قال الرسول ﷺ : «**من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله به طريقا إلى الجنة**» .

وقال ﷺ من حديث : «**وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع**» .

فأعظم الأشياء رتبة فى حق الإنسان السعادة الأبدية ، وأفضل الأشياء ما هو وسيلة إليها ولن يذهب إليها إلا بالعلم والعمل ولا يتوصل إلى العمل إلا بالعلم ، فأصل السعادة فى الدنيا والآخرة هو العلم ، فهو إذا أفضل الأعمال ، وكيف لا وقد تعرف فضيلة الشىء أيضا بشرف ثمرته ، وثمرة العلم القرب من رب العالمين ، والالتحاق بأفق الملائكة ، هذا فى الآخرة ، وأما فى الدنيا فالعز والوقار ولزوم الاحترام فى الطباع ، فإذا كان العلم من أفضل الأمور كان تعلمه طلبا للأفضل .

وقد قيل للإمام مالك - رضى الله عنه - ما تقول فى طلب العلم فقال : (حسن جميل ، ولكن انظر إلى الذى يلزمك من حين تصبح إلى حين تمسى فالزمه) ، فقال : العلم نور يجعله الله حيث يشاء ، وليس بكثرة الرواية ، وهذا الاحترام والتوقير منه للعلم يدل على قوة معرفته بجلال الله تعالى .

وكان الإمام أبو حنيفة - رضى الله عنه - عابدا زاهدا عارفا بالله - تعالى - ، خائفا منه ، مريدا وجه الله تعالى بعلمه ، وقد دعى إلى ولاية القضاء ، فقال : أنا لا أصلح لهذا ، فقيل له : لم؟ فقال : إن كنت صادقا فما أصلح لها ، وإن كنت كاذبا فالكاذب لا يصلح للقضاء ، وأما علمه بطريق الآخرة ، وطريق أمور الدين ومعرفته بالله عز وجل ؛ فيدل عليه شدة خوفه من الله تعالى وزهده فى الدنيا .

ولقد أتى على المسلمين حين من الدهر ركنوا إلى الكسل حتى خمدت ملكاتهم ، وجمدوا على ما تركه أسلافهم واهمين أن ما ورثوا هو كل العلم ، غافلين عن أن

العلم إذا ركدت أدواته فقد حركته ، ولم يعد مثمراً ولا منبتاً .

ولقد ظلوا كذلك عاكفين على ما ألفوا بينما غيرهم يتسابقون من حولهم فى آفاق من العلوم والمعارف ، فنشط الآخرون إلى اكتساب العلم القادر على أن ينظم حياة المجتمع ، ويرتقى بها ، ويضع كل فرد فى مكانه المناسب ويحدد له مسؤولياته ، حتى يقوم بعمله مخلصاً فيه ، مؤمنا به ، بحيث يؤتى العمل ثمارا ينعم بها الفرد والمجتمع .

وفى هذا العصر تنوعت آفاق المعرفة والعلوم ، وصارت مجال تنافس وتسابق ، بل صار الصراع العلمى حاداً بين القوى العظمى فى العالم ، وجاداً فى المعامل ومعاهد البحوث ، فضلا عن العلوم النظرية الأخرى .

ولست بحاجة إلى أن أوجه النظر إلى ما امتلأت به أجواء الفضاء من أقمار ومركبات ، ترقب وترصد كل حركة على الأرض وفى أعماق البحار .

وما زال أبناؤنا منصرفين فى طلب العلم إلى العلوم التقليدية ، مترقبين للتوظيف ، قانعين بما حصلوا من علم توصلوا به إلى الشهادة التى يأملون .

إنى أذكر أبنائنا وبناتنا أن طلب العلم كل العلم النافع للدين والدنيا أمر يحث عليه الدين ويلتقى معه .

إن الطالب أو الأستاذ يعكف على البحث العلمى فى مراكزه ومعامله ، يؤدى للأمة جهداً لا يقل عن جهد المحارب الذى يحمل السلاح فى ميدان القتال ، ولا عن جهد السياسى الذى يبذل قدراته فى مجال السياسة ، ولا عن جهد رجل الاقتصاد الذى يدبر الموارد المالية ويبتكر طرق تحسينها ، ويعالج آثار الإسراف والإتلاف على مصادر التمويل .

إن استقلال الأمة - وإن كان مظهره الاستقلال السياسى - بأن يكون للوطن كيانه المستقل ومظهره الدولى وعناصره المحلية من علم ودولة ونشيد وجيش ، فإن هذا كله يعد مرحلة أولى للاستقلال ولابد بعد هذا ، بل ومعه من الاستقلال الاقتصادى حيث

تقوم الدولة على مقومات اقتصادية تعتمد عليها قوتها الذاتية .

ومع ذلك فلابد من العلم والذاتية العلمية للدولة ، بمعنى : أن تكون قادرة علميا على صون استقلالها السياسى ، وإدارة اقتصادها وتنميته ، وذلك بتربية الكفاءات القادرة على ريم المستقبل وصيانته والدفاع عنه وتوجيه النهضة العلمية إلى الابتكار ، دون الاقتصار على التقليد والاستيراد .

ولابد من أن يحوط كل ذلك ذاتية ثقافية عامة نابعة من الدين والعادات والأعراف والتقاليد ، وأن تكون لها حضارتها ذات الخصائص المتميزة ؛ فلا تذوب فى غيرها ، بل لابد أن تحتفظ بسماتها فى اللغة والعادات اليومية والملبس وطرائف التفكير والتعبير .

تلك مجالات طلب العلم ، لا يختلف الإسلام معها ولا يتخلف عنها ، وإليها ينبغى أن - تتجه طاقات شباب الأمة دراسة عميقة مفيدة ، وأن يتخلص من السطحية التى غلبت فى الدراسة وفى التحصيل ، وأن تكون له مكتبته ، التى جلس إليها ، وذات علاقة بما استماله من فروع العلوم .

إنى أدعو الشباب إلى طلب العلم ، كل العلم ، والإقبال عليه كما أدعوهم إلى الإقبال على الإسلام علماً وعملاً ، وليتعلموا من الدين ما وسعهم ، وما تصلح به حياتهم ، وصلتهم بالله ، وبالناس ، وبالأسرة بوجه خاص ، وأهيب بأولئك الشباب الذين انصرفوا إلى التدين ، ولكنهم تحولوا إلى نوع من الانطواء المذهبى أو الطائفى أو العقائدى ، واستبدلوا بالسماحة التى هى سمة الإسلام سمات الريبة والغلظة والتقوقع فى مجموعات أو جماعات عزلها انطواؤها عن فئات المجتمع الإسلامى ، وظنت أنها على الحق وغيرها على الباطل ، فنفرت من المجتمع وتحولت بطاقاتها إلى صراع معه أو مع الدولة أو مع الحاكم دون سند أو سبب مشروع ، وبدلا من أن تستهلك طاقات هؤلاء الشباب فيما ينفع الأمة ، تستنفذ الصراعات الداخلية ، هكذا تتشعب المسالك ، التى تؤدى إلى المهالك .

أيها الشباب : خذوا من الإسلام سماحته فى الصلة بالله وبالناس وأصلحوا ذات

بينكم بالحسنى وبالموعظة الخالصة ، وكفوا عما شغلتم به أنفسكم وغيركم من صغار الأمور التى رفعتموها إلى درجات العقيدة وفروض الشريعة .

تحملوا المسئولية المنوطة بكم ، وآمنوا بالله وبالإسلام الذى أمر بالعلم والعمل ، واعلموا أن العلم المطلوب - بعد العلم بأمور الإسلام - هو العلم الذى يصلح به هذه الحياة ، ينميها ويحميها ، وترهبون به عدو الله وعدوكم ، وترفعون به قدر أمتكم والله معكم ، ولن يتركم أعمالكم .

وهذا ما أنعم الحق تعالى به ونعم الخالق سبحانه لا تُحصى .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين . . .

وصلى الله على سيدنا محمد وآلة وصحبه وسلم .

خادم القرآن

محمد محمود عبد الله

مدرس علوم القرآن بالأزهر

الفهــرس

* * * * * * *